شعر غزوات النَّبيﷺ - دراسة تحليليَّة

د. محمد بن هادي المباركي *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٦/٢٥ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١٢/١٩

ملخّص

يتناول هذا البحث دراسة شعر الغزوات في عهد النبيﷺ، حيث عرضت الدِّراسة لغزوات النبي -ﷺ- وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشِّعر من ردود على المشركين الذين هجوا النَّبي -ﷺ وطعنوا في دعوته، وحاربوا المسلمين، فكانت غزوة بدر هي أولى الغزوات التي نظم فيها شعراء المسلمين أشعارهم، وأبانوا عن صدق دعوتهم، وعظمة رسالتهم، وتضحيتهم من أجلها بأنفسهم في سبيل الله. ثم توالت الغزوات في أُحد، والخندق، ومؤتة، وأخيراً جاء فتح مكة فكان بشارة عظيمة للمسلمين، وهو ما دعا الشُّعراء إلى تمجيد ذلك الفتح، وبيان أهمِّيته في نفوس المسلمين، وهذا هو ما اشتمل عليه القسم الأول من الدِّراسة.

أما القسم الثاني فقد تناول "القيم الفنِّية في شعر الغزوات" وذلك من خلال دراسة أثر القرآن الكريم في أسلوب الشعر الذي نُظم في تلك الغزوات، وكذلك دراسة اللغة الشِّعرية عند الشعراء، والوقوف عند الصورة الفنية وجمالها وما أبدته من أثر تعبيري في تلك الأشعار.

Abstract

The Poetry Exhalting the Prophetic Incursions

Dr. Muhammad Bin Haadi Al-Mubaaraki

This paper investigates poetry glorifying incursions led by the Prophet Mohammad S.A.A. W) and rebuffing slanders made by hostile polytheists against the Prophet (S.A.A.W. As for Badr, the first of all prophetic incursions that was poetized, we find Moslem poets composing verse unveiling the veracity of their call, the grandeur of their mission, and the sacrifices they made for its cause. Then came other incursions: Uhud, Khandaq, Mu'tah, and the conquest of Mecca which broke great news to the Moslems that beckoned poets to glorify the incident and artiwlate its import on the minds of the Moslem community. The paper also takes up the artistic values of this poetry drawing on the impact of the Holy Koran on the poetic style, language, and imagery serving an expressive effect.

* قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد :

فإنَّ الشِّعر في ظلال الإسلام قد أدَّى دوراً لا يُنكر في مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة حين واكب الغزوات والفتوحات، ونافح الشُّعراء عن حياض الدَّعوة بكلِّ ما أُوتوا من فصاحة وبيان، وبما استقرَّ في نفوسهم من أضواء اليقين، وإشراقات الإيمان.

وكانت مواقف المصطفى - ﷺ - من شعراء الإسلام قد دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم، والوقوف في وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانيَّة التي تزلزل الجبال وتهزُّ الرَّواسي.

ولقد كانت غزوات النَّبيِّ - ﷺ - ميداناً خصباً سار في ركابه كثير من الشُّعراء، وأبانوا عن مناصرتهم لدين الله تعالى، والتَّصدِّي للمشركين الذين ما فتئوا يتعرَّضون للمسلمين. حيث كان للشِّعر – آنذاك – دوره في مختلف المواقع والغزوات التي خاضها المسلمون من أجل الدِّفاع عن عقيدتهم، والحرص على نشر دعوتهم في شتَّى الأقطار، وهو ما أوجد شعراً وافراً يواكب تلك الغزوات، ويعبِّر عنها، ويستلهم المفهومات الدِّينيَّة في مضامينه التي يتناولها.

وقد آثرت أن تتناول هذه الدِّراسة شعر غزوات النَّبيِّ ﷺ للوقوف على هذا الشِّعر، ومعرفة أبعاده وتصوُّراته، وما يحمله من قيم فنِّيَّة وسمات خاصَّة.

أمَّا المنهج الذي اتَّبعته في هذه الدِّراسة فيقوم على الجمع بين المنهجين الاستقرائي والتَّحليلي الفنِّي في الوقوف عند شعر الغزوات، وبيان الجوانب التي تناولها، وقد اقتصرت الدراسة على الغزوات التي قيل فيها شعر، أمَّا التي لم يرد فيها شعر فقد استثنيتها، وأوردت ما جاء نادراً من شعر في بعض الغزوات في ثنايا البحث، كما تناولت الدراسة الجوانب الفنية في شعر الغزوات وذلك من خلال الوقوف على بعض القيم الفنِّيَّة والسمات الأسلوبيَّة.

وقد تكوَّنت **خطَّة البحث** من **قسمين**، يسبقهما **مقدِّمة**، وتتلوهما **الخاتمة**، وتفصيل ذلك كالآتي :

القسم الأوَّل بعنوان : ((**الشِّعـــــر في مواكبـــة الغزوات**)). واشتمل على المباحث التَّالية:

(١) - غزوة بدر.

(٢) - غزوة أحد.

(٣) - غزوة الخندق.

(٤) - غزوة مؤتة.

(٥) - فتح مكّة.

أمَّا **القسم الثَّاني** فهو بعنوان : **((القيم الفنِّيَّة في شعر الغزوات))**

واشتمل على المباحث التَّالية :

١. أثر القرآن الكريم في أسلوب الشِّعر.

٢. اللُّغة الشِّعريَّة.

٣. الصُّورة الفنِّيَّة.

وأخيراً جاءت **الخاتمة**، وتضمَّنت خلاصة للبحث.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنَّه خير مسؤول. وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

الشعر في مواكبة الغزوات

شهد عصر صدر الإسلام ملاحم بطوليّة، وانشغل النّاس فيه بالغزوات والفتوحات، وقد استطاع شعر الغزوات أن يواكب تلك الأحداث، ويصوّر تلك المشاهد، فجاء غزيرًا متدفِّقًا، يستلهم المفهومات الدِّينيَّة، ويعبِّر عنها، ويصف بطولات المسلمين وملاحمهم الّتي سطّروها، مبيِّنًا فيها دور الإسلام البارز والمؤثِّرات الإنسانيّة الّتي جاء بها الإسلام ليخرج النّاس من دياجير الظلمات إلى أنوار الهداية والإيمان.

وقد استطاع الرّسول الكريم - ﷺ - أن يطوِّر الحياة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والدِّينيَّة والحربيَّة خلال عقدين ونيِّف من الزَّمن، وأن يجهِّز الجيوش والفرسان لنشر الدَّعوة الإسلاميَّة في مختلف الأمصار، وقد صوَّر الشُّعراء غزوات الرَّسول - ﷺ- ومعاركه، وعلى رأسهم حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحـــة — رضوان الله عليهم أجمعين — الذين جاء شعرهم ناطقاً حيّاً ومعبِّراً صادقاً عن المعارك والغزوات، سواءٌ أكانت داخل الجزيرة العربيَّة أم خارجها، إذ فتن الشِّعر بتصوير تلك الملاحم البطوليَّة، التي دفع المسلمون فيها كثيراً من الشُّهداء من أجل نصرة دين الإسلام.

للشِّعر - آنذاك — تأثيره المحرِّض في النُّفوس، وقدرته على حفز الهمم وتقوية العزائم، ومن هنا جاء اهتمام الرَّسول - ﷺ - بالشِّعر ليدحض به آراء أعداء الإسلام الذين كانوا يهجونه ويصدّون عن سبيل الله، حيث أُسند إلى الأدب مهمَّة الدِّفاع عن العقيدة الإسلاميَّة، فقد قال النَّبيُّ - ﷺ - ملتفتاً إلى الأنصار: ((ما يمنع الَّذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسَّان ابن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرُّني به مقول بين بصرى وصنعاء)) [(١)]. وانضمَّ إليه كعب بن مالك وعبد

(١) الأصبهاني، أبو الفرج (٣٥٦/٩٦٦م)، **الأغاني**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الشعب، القاهرة ١٣٨٩، ١٣٧/٤ .

الله بن رواحة – رضي الله عنهما-. وقد كانت قريش تثير المتاعب في وجه الدَّعوة الإسلاميَّة ممَّا اضطرَّ النَّبيَّ - ﷺ - إلى الهجرة من مكَّة إلى المدينة، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معارك طاحنة تقف فيها قريش ومن يعينها من العرب في جانب، ويقف الرَّسول - ﷺ - ومن هاجروا معه من مكَّة، ومن التفُّوا حوله من الأنصار في جانب آخر.

وكان ثلاثة من الشُّعراء الأنصار، وهم حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة – رضوان الله عليهم – يهجون المشركين، فكان حسَّان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع، والأيَّام، والمآثر، ويعيِّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيِّرهم بالكفر، فكان في ذلك الزَّمان أشدّ القول عليهم قول حسَّان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلمَّا أسلموا، وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة[1]. وفي الحديث الشَّريف أنّ رسول الله - ﷺ - قال : ((أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسَّان بن ثابت فشفى واشتفى)) [2].

وسوف يظهر بوضوح أثر شعر الغزوات في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والمشركين، وإبراز القيم الإسلاميَّة السَّامية التي أفصح عنها المسلمون، وهم يسيرون في الغزوات، ويخوضون المعارك، وتتحقَّق لهم الفتوح التي طالما انتظروها، لينشروا دعوتهم الإسلاميَّة في كلِّ الآفاق، ويعلنوا عن دينهم الحقّ الذي ارتضاه المولى – عزَّ وجلَّ – ديناً لكلِّ البشريَّة.

وفي مقدِّمة تلك الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النَّبيِّ - ﷺ - :

(١) غزوة بدر :

لقد رصد الشِّعر غزوات النَّبيِّ - ﷺ - ومعاركه ضدَّ المشركين، وعندما وقف مصوِّراً موقعة ((بدر)) لفت انتباهنا إلى ما لحق بالمشركين – على كثرة عددهم وعتادهم – من خسائر في الأرواح، وفقدانهم الأمل في النَّصر على المسلمين، وهو ما ظهر بوضوح في شعر شاعر الرَّسول حسَّان بن ثابت، الَّذي سخر من الكفَّار المنهزمين مشيراً إلى شجاعة المسلمين، وثباتهم في يوم بدر، حيث قتلوا عدداً من فرسان قريش، وأسروا الكثيرين، وفي ذلك يقول :

لقد عَلِمَتْ قُرَيْشٌ يومَ بدرٍ ... غَدَاةَ الأَسْرِ والقَتْلِ الشَّدِيدِ
بأنَّا حين تشْتَجِرُ العوالِي ... حُمَاةُ الحَرْبِ بَعْدَ أبي الوليدِ

(١) انظر : قصَّاب، وليد، **النَّظرة النَّبويَّة في نقد الشِّعر**، منشورات المكتبة الحديثة، العين، ط١، ١٤٠٧هـ، ص ٣٦ .

(٢) الإمام مسلم، أبو الحسين (٢٦١هـ/٨٧٤م)، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط١، ١٣٧٥هـ، ١٩٣٥/٤ .

قَتَلْنَا ابْنَيْ ربيعةَ يومَ سَـــارُوا ... إلينا في مُضَاعَفَةِ الحـــديدِ
وَفَرَّ بها حكيمٌ[١] يومَ جَـاءَتْ ... بنُو النَّجَّارِ تَخْطِرُ كالأُسُـــودِ
وأَفْلَتْ عندَ ذَاكَ جُمـــوعُ فِهْرٍ ... وأَسْلَمَهَا الحُوَيْرِثُ[٢] مـــن بعيـــدِ
لقـــد لاقَيْتُم ذُلاًّ وقَتْـــــلاً ... جَهيزاً نافذاً تحت الوَريـــــــدِ
وكلُّ القومِ قد ولَّوا جميعـــاً ... ولم يلووا على الحَسَبِ التَّليدِ[٣]

حيث تشعر وأنت تقرأ هذا النَّص بجوِّ المعركة، وما دار فيها من شدَّة القتال، وسقوط القتلى، وظهور المجاهدين كالأُسُود وهم يتصدَّون لفرسان قريش، ويوقعون بهم الهزيمة على الرَّغم من قلَّة عدد جيش المسلمين وعتادهم.

ويفخر حسَّان - ﷺ - في يوم بدر بأنَّ فرسان المسلمين قد قتلوا كبار قريش من المشركين الذين قدموا لحرب المسلمين، وجاء قتلهم لكفرهم بالله ورسوله، يقول:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى مكَّةَ الَّذِي ... قَتَلْنَا مِنَ الكُفَّارِ في سَـاعَةِ العُسْرِ
قَتَلْنَـا أَبَـا جَهْلٍ وعُتْبَةَ قَبْلَهُ ... وَشَيْبَةَ[٤] أَيْضاً عِنْدَ نَايرةِ[٥] الصَّبْرِ
قَتَلْنَا سَرَاةَ القَـــومِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ ... فلم يَرْجِعُوا إلاَّ بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
وكم قد قَتَلْنَـــا من كَرِيـــمٍ مُرَزَّأٍ ... له حَسَبٌ في قومِهِ نَابِهِ الذِّكْـــرِ
تَرَكناهم للخَامِعَاتِ[٦] تَنُوبُهـــم ... ويَصْلَوْنَ ناراً بَعْدَ نائِبَـةِ القَعْـــرِ
بِكُفْرِهِـــمُ باللهِ والدِّينُ قائمٌ ... ومَا طَلَبُوا فِينَـــا بِطَائِلةِ الوِتْـــرِ
لَعَمْرِي لقد قَلَّتْ كَتَائِبُ غَالِبٍ ... وما ظَفِرَتْ يومَ الْتَقَيْنَا عَلَى بَدْرِ[٧]

أمَّا كعب بن مالك - ﷺ - فيصوِّر تجمُّع قريش بقضِّها وقضيضها في يوم بدر لتحارب الإسلام

---

(١) يقصد حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى ، وكان قد انهزم يوم بدر فرزقه الله الإسلام قبل دخول النَّبيِّ - ﷺ - إلى مكَّة بيوم هو وأبو سفيان . (انظر : العسقلاني، ابن حجر (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الإصابة في تمييز الصَّحابة لابن حجر العسقلاني**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م، ٣٢٧/١) .

(٢) يريد الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، الذي شهد بدراً مع المشركين فانهزم ، وأسلم يوم فتح مكَّة .

(٣) حسَّان بن ثابت (٤٠هـ/٦٦٠م)، **الديوان**، تحقيق : سيد حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٦٥ .

(٤) عُتْبَةُ وشَيْبَةُ : ابنا ربيعة بن عبد شمس ، من كبار قريش وساداتها ، وقد قُتلا في بدر .

(٥) النَّايرة : الحرب .

(٦) الخَامِعَاتُ : الخَامِعَةُ الضَّبُعُ ، سُمِّيت كذلك لأنَّها تَخْمَع إذا مشت . (انظر : ابن منظور (٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت، ٧٩/٨) .

(٧) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٢٦٦ .

والدَّعوة المحمَّديَّة، ويظهر قوَّة المسلمين واندفاعهم في الحرب كالأُسود، فقد تصدوا للمشركين، وهزموا كبار قريش، ونال المشركون نصيبهم من المعركة بعد أن حطَّمهم المسلمون ببيض صوارمهم، وهو ما أشار إليه كعب في قوله :

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ فِي نَأْيِ دَارِهَا ... وأَخْبَرُ شَيْءٍ بالأُمُورِ عَلِيمُهَا
بِأَنْ قَدْ رَمَتْنَا عَن قِسيٍّ عَدَاوَةً ... مَعَدٌّ معاً جُهَّالُها وحَلِيمُهَا
فَسَارُوا وسِرْنَا فَالْتَقَيْنَا كأَنَّنَا ... أُسُودُ لِقَاءٍ لا يُرَجَّى كَلِيمُهَا
ضَرَبْنَاهُمُ حتَّى هَوَى فِي مَكَرِّنَا ... لِمَنْخَرِ سُوءٍ من لؤيٍّ عظيمُها
فَوَلَّوا ودُسْنَاهُمْ ببيضِ صَوَارِمٍ ... سواءٌ علينا حِلْفُها وصَمِيمُها(١)

وقد جاء شعر كعب بن مالك يقرع أسماع مشركي قريش، ويذكِّرهم بيوم بدر، حيث صُرع أبو جهل، وترك في متناول الطَّير وإلى جانبه عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأميَّة بن خلف الذي نال حتفه أيضاً، إذ نالت سيوف المسلمين من هاماتهم، يقول :

نَسِيتُمْ ضَرْبَنَا بِقَلِيبِ (٢) بَدْرٍ ... غَدَاةَ أَتَاكُمُ الموتُ العَجِيلُ
غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيعاً ... عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةً تَجُولُ
وعُتْبَةُ وابْنُه خَرَّا جميعاً ... وشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ
ومُتْرِكُنَا أُمَيَّةَ مُجْلَعِبّاً(٣) ... وفي حَيْزُومِهِ لَدْنٌ نَبِيلُ(٤)
وهَام بني ربيعةَ سَائِلُوهَا ... ففي أَسْيَافِنَا منها فُلُولُ(٥)

حيث صوَّرت هذه الأبيات شدَّة موقعة بدر وضرواتها، وما حدث فيها من قتل سادة قريش وفرسانهم، فقد تُركوا مجندلين في أرض المعركة والطَّير تحوم فوقهم، في مشهد يدلُّ على بسالة المجاهدين، وتمكُّنهم من أعدائهم. ولا غرابة في ذلك فقد كانت التَّضحية والفداء تتقدَّمان تلك المعركة، وذلك حين تسابق الصَّحابة – رضوان الله عليهم – لحمل السِّلاح ومقاتلة أعداء الإسلام، وذلك سعياً وراء رضوان الله تعالى، وطمعاً بجنَّته التي وعد بها الشُّهداء في سبيله. وحينما قال الرَّسول - ﷺ - يوم بدر : ((والذي نفس محمَّد بيده،

(١) كعب بن مالك (٥٠هـ/٦٧٠م)، **ديوان الأنصاري**، تحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٦م، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.
(٢) القَليب : البئر .
(٣) مُجْلَعِبّاً : ممتدّاً على الأرض .
(٤) حَيْزُومُه : أسفل صدره ، واللدنُ : الرُّمحُ اللين ، النَّبيلُ : العظيم .
(٥) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٥٣ .

لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلاّ أدخله الله الجنَّة)) [١]، فقال عُمير بن الحُمام السُّلمي - ﷺ -، وكان يأكل تمرات بيده : بخٍ بخٍ، فما بيني وبين أن أدخل الجنَّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء ! ثمَّ قذف التَّمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتَّى قُتل، وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللـهِ بغـيرِ زَادِ إلاّ التُّقى وعَمَلِ المَعَـادِ
والصَّبْرِ في اللهِ عَلَى الجِهَـادِ وكلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَـادِ
غيرُ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَـادِ[٢]

غزوة أحد :

لقد تألَّب القرشيُّون ومن يساندهم على المسلمين بعد وقعة بدر التي أذهلت كفَّار قريش ورجالها، إذ أصيب كبار فرسانهم وخسروا أعداداً كبيرةً لم تكن متوقَّعة لديهم، ممَّا أدَّى إلى اشتداد غيظهم وحقدهم على النَّبيِّ - ﷺ - وأصحابه، وبدأوا يعدُّون العدَّة لأخذ الثَّأر من المسلمين، فجمع الكفَّار قبائلهم وعشائرهم ومن حالفهم من مكَّة وجوارها وجاءوا قاصدين النَّيل من رسول الله - ﷺ - في عدد من الرِّجال يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المسلمين الذين خرجوا وثبتوا لهذه المعركة لا يزيد على الأربعمائة مجاهد، وقد انتهت المعركة لصالح المشركين، حيث استطاع الكفَّار قتل بعض قادة المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطَّلب - ﷺ - ورجع الرَّسول - ﷺ - بمن معه من الرِّجال إلى المدينة، بينما عادت جحافل الكفَّار ومعهم جرحاهم وبقلوبهم فرحة الثَّأر لقتلاهم في بدر التي حاقت بهم الهزيمة فيها.

وقد كان للشِّعر دوره في غزوة أحد، حيث وصف الشُّعراء ما دار فيها من أحداث ومواقف، ودارت مساجلات بين شعراء المسلمين وشعراء الكفَّار، ورثى الشُّعراء من استشهدوا في تلك الغزوة، وفي مقدِّمتهم حمزة بن عبد المطَّلب - ﷺ -.

وأولى هذه القصائد التي نظمها الشُّعراء في تلك الغزوة قصيدة حسَّـان بن ثابت -ﷺ - الَّتي ردَّ فيها على هُبيرة بن أبي وهب المخزومي – شاعر المشركين – الذي أخذ يزهو ويفخر بما حقَّقه قومه في أحد، وهو ما ظهر في قصيدته التي يقول في مطلعها :

سُقْنَا كِنَانَةَ مِنْ أَطْرَافِ ذي يَمَنٍ عُرْضِ الْبِلَادِ عَلَى ما كانَ يُزْجِيها[٣]

---

(١) ابن هشام (٢١٢هـ/٨٢٧م)، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٦٢٧/١ ، تحقيق : مصطفى السَّقا وزميليه، القاهرة، ط٢، ١٣٧٥هـ.

(٢) الطَّبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الرُّسل والملوك**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦، ٤٤٨/٢.

(٣) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ١٣٠/٣ .

فقد ردَّ عليه حسَّان بن ثابت - ﷺ - بقوله:

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلاً مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ اللهِ مُخْزِيهَا
أَوْرَدْتُمُوها حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً فَالنَّارُ مَوْعِدُها، والقَتْلُ لَاقِيهَا
أَنتم أَحَابِيشُ جُمِّعْتُمْ بِلَا نَسَبٍ أَئِمَّةُ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا
هَلَّا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللهِ إِذْ لَقِيَتْ أَهْلَ القَلِيبِ ومَنْ أَرْدَيْنَهُ فِيهَا
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلَا ثَمَنٍ وَحَزٍّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا(١)

حيث يشير حسَّان - ﷺ - إلى صنيع المشركين وجهلهم، وأنَّهم لو كانوا يعرفون حقيقة النَّبيِّ - ﷺ - لما ساقوا إليه بني كنانة، الذين لاقوا الذُّلَّ والموت من جند الله في موقعة بدر، ويفخر على هُبيرة المخزومي بإطلاقه أسرى بدر بلا ثمن، وهذا لعمري غاية النَّصر.

أمَّا كعب بن مالك - ﷺ - فقد أجاب هُبيرة بقصيدة طويلة وصفت ما دار في غزوة أُحد، وما حفلت به الموقعة من شدَّة وضراوة، حيث بدأ قصيدته بوصف مكان المعركة، وأنَّها كانت أرضاً صعبة المسالك وعرة الدُّروب، لا يسلكها إلاَّ حمر الوحش أو النَّعام، وقد امتلأت بالجيف من مخلَّفات الوحوش وعظام الفرائس، يقول :

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا ودُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ(٢)
صَحَارٍ وأَعْلَامٌ كَأَنَّ قَتَامَهَا مِنَ الْبُعْدِ نَقْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعُ(٣)
تَظَلُّ بِهِ البُزْلُ العَرَامِيسُ رُزَّحاً وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينِ فَيُمْرِعُ(٤)
بِهِ جِيَفُ الحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيبُها كَمَا لَاحَ كِتَّانُ التجار المُوَضَّعُ(٥)
بِهِ العِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وبيض نَعامٍ قَيْضُه(٦) يَتَقَلَّعُ(٧)

ثمَّ يصف كعب - ﷺ - بطولة المؤمنين الذَّائدين عن دين الله، مذكِّراً المشركين في أُحد بهزيمتهم السَّاحقة التي واجهتهم في بدر، يقول:

---

(١) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٢٠٥ .

(٢) الخرق : الفلاة التي تنخرق فيها الرِّيح . ومتنعنع: مضطرب .

(٣) الأعلام: الجبال المرتفعة . والقتام: ما مال لونه إلى السَّواد .

(٤) البُزْل : جمع بازل وهو البعير القويّ . والعِرْمِسُ : النَّاقة الشَّديدة . ويمرع : يخصب .

(٥) الصَّليب : ودك العظام . والموضَّع : المبسوط والمنقوش .

(٦) العِينُ : البقر الوحشي . الآرام : الظِّباء . القيض : قشر البيض الأعلى .

(٧) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٢٢ .

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كلُّ فَخْمَةٍ[١] مُذَرَّبَةٍ فيها القَوَانِسُ تَلْمَعُ[٢]

وكلُّ صموتٍ في الصُّوانِ كأنَّها إذا لُبِسَتْ نِهْيٌ من الماءِ مُتْرَعُ[٣]

ولكنْ بِبَدْرٍ سَائِلُوا مَنْ لَقِيتُمُ من النَّاسِ، والأَنْبَاءُ بالغَيْبِ تَنْفَعُ[٤]

ثم يشير كعب - ﷺ - إلى الاستعداد النَّفسي لتلك الموقعة، وكيف أنّ الكفَّار ضربوا خيامهم وأبنيتهم بأرض المعركة، ورأى المؤمنون كثرتها فتشاوروا فيما بينهم ماذا يمنعهم من السُّكوت على ما بدأهم به الكفَّار؟ وكيف لا يتشاورون مع رسول الله - ﷺ - فيما ينبغي فعله ؟ فقوله الحقُّ، ومن أعرض عن نصحه فقد باء بالخسران، وبعد المشاورة أبان لهم الرَّسول - ﷺ - أنَّ من كانت نيَّته للجهاد حقيقةً والطَّمع فيما عند الله تعالى فعليه أن يشمِّر لذلك ؛ ليظفر بما أعدَّه الله – عزَّ وجلَّ – لعباده المؤمنين الصَّادقين، وفي ذلك يقول :

ولَمَّا ابْتَنَوْا بالعِرْضِ[٥] قَالَ سَرَاتُنا عَلَامَ إذا لم نَمْنَع العِرْضَ نَزْرَعُ ؟

وفِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ إذَا قَالَ فِينَا القَوْلَ لا نَتَطَلَّعُ

تَدَلَّى عليه الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ ربِّهِ يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ ويُرْفَعُ

نُشَاوِرُهُ فيما نُرِيدُ وقَصْرُنَا[٦] إذا ما اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ ونَسْمَعُ

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ لَمَّا بدوا لنا ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ المَنِيَّاتِ واطمعوا

وكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الحَيَاةَ تَقَرُّباً إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ ويُرْجَعُ

ولكن خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وتَوَكَّلُوا على اللهِ إنَّ الأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ

فَسِرْنَا عليهم جَهْرَةً في رِحَالِهِمْ ضُحَيّاً عَلَيْنَا البِيضُ لا نَتَخَشَّعُ[٧]

ثم يصل كعب ﷺ - إلى وصف المعركة وأحداثها، بدءاً من بيان عدد المقاتلين من الطَّرفين، وانتهاءً

---

(١) قال ابن هشام : وكان كعب بن مالك قد قال : مجالدنا عن حِذْمنا كل فخمة . فقال رسول الله - ﷺ -: أيصلح أن تقول مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم . فقال رسول الله - ﷺ - : فهو أحسن ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا . (انظر: ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ١٣٦/٢).

(٢) مجالدُنا: مدافعنا . والفخمةُ : الكَتيبةُ العظيمة. المُذَرَّبَةُ: المتعودةُ على القتال الماهرة فيه.

(٣) الصَّمُوتُ : الدِّرع . الصوانُ : كل ما يُصان فيه الشَّيءُ ، درعاً كان أو ثوباً أو غيرهما . النِّهْيُ : الغديرُ . ومُتْرَعٌ : أي : مملوءٌ ماءً.

(٤) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٢٣ .

(٥) العِرض : موضع خارج المدينة. وكلُّ وادٍ فيه شجر فهو عِرض .

(٦) قَصْرُنَا: غايتنا ونهاية أمرنا .

(٧) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

بما حدث في أرض المعركة من التحام الجيشين، حيث تُسدَّد الطَّعنات، وتُصوَّب الرِّماح، وتقرع الخيول، وتسبح في الفضاء كأنَّها الجراد المنتشر، وفي ذلك يقول :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ من البَحْرِ وَسْطَهُ ... أَحَابِيشُ منهم حَاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ ونحنُ نَصِيَّةٌ(١) ... ثَلَاثُ مِئِينٍ إِنْ كَثُرْنا وأَرْبَعُ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي المَنِيَّةُ بَيْنَنَا ... نُشَارِعُهُمْ(٢) حَوْضَ المَنَايَا ونَشْرَعُ
تَهَادَى قِسِيُّ النَّبْعِ فينا وفيهمُ ... وما هُوَ إِلَّا اليَثْرِبِيُّ(٣) المُقَطَّعُ
ومَنْجُوفَةٌ حِرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ(٤) ... يُذَرُّ عليها السُّمُّ ساعةَ تُصْنَعُ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وتَارَةً ... تَمُرُّ بِأَعْرَاضِ البِصَارِ تُقَعْقِعُ(٥)
وخَيْلٌ تَرَاهَا بالفَضَاءِ كأَنَّها ... جَرَادُ صَبَاً في قَرَّةٍ يَتَرَيَّعُ(٦)
فلَمَّ تَلَاقَيْنَا ودَارَتْ بِنَا الرَّحَى ... ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ(٧) ... كَأَنَّهُمُ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ
فَنِلْنَا وَنَالَ القَوْمُ مِنَّا وربَّما ... فَعَلْنَا، ولكنْ ما لَدَى اللهِ أَوْسَعُ
ودَارَتْ رَحَانَا، واسْتَدَارَتْ رَحَاهُمُ ... وقَدْ جُعِلُوا كُلٌّ من الشَّرِّ يَشْبَعُ(٨)

ويختتم كعب - ﷺ - قصيدته بتعداد صفات جيش المسلمين في أنَّهم يقدمون على الحرب متى كانت دفاعاً عن عرض أو عقيدة وليس لمغنم دنيوي، وأنَّهم تدرَّبوا على الحرب وألفوها، فلا يهابون أعداءهم، ولا يتراجعون في المواجهة، وقد عرفوا آداب القتال فلا يجزعون إن أُصيبوا، فالحرب سجال دائماً، وإن ظفروا بالعدوّ فلا فحش ولا تمثيل بالقتلى أو إذلال للأسرى وإنَّما منهج الإسلام في معاملة المتحاربين والأسرى، حيث يقول كعب واصفاً بطولة ذلك الجيش المسلم :

ونحن أُناسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ... عَلَى كلِّ مَنْ يَحْمِي الذِّمارَ(٩) ويَمْنَعُ

---

(١) النَّصِيَّةُ : الخيارُ من القوم .
(٢) نُغَاورهم : أي نغير عليهم . ونُشَارعهم : أي نشاربهم .
(٣) اليَثْرِبِيُّ: الأوتار، نسبةً إلى يثرب .
(٤) المنجوفةُ : السِّهامُ المثقَّفة . والحرميَّةُ: نسبةً إلى أهل الحرم . والصَّاعديَّةُ : نسبة إلى صاعد ، وهو صانع معروف .
(٥) تَصُوبُ : تقع . والبِصَارُ : الحجارةُ اللينةُ . وتُقعقعُ: تُصَوِّت .
(٦) الصَّبَا : ريحٌ شرقيَّة . والقَرَّةُ : البردُ . ويَتَرَيَّعُ : يجيء ويذهب .
(٧) سَرَاتُهم : خيارهم .
(٨) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٢٥ — ٢٢٧ .
(٩) السُّبَّةُ : العار . والذِّمار: ما يجب على الرَّجل حمايته .

ولكنَّنا نَقْلِي الفِرَارَ، ولا نَرَى الـــــ ـــــفِرَارَ لمن يرجو العَوَاقِبَ يَنْفَعُ
جِلَادٌ[١] على ريب الحوادث لا ترى على هَالِكٍ عَيْناً لنا الـدَّهرَ تَدْمَعُ
بنُو الحَرْبِ لا نَعْيَا بشيءٍ نَقُولُـه ولا نحنُ مِمَّا جَرَّتِ الحَرْبُ نَجْزَعُ
بنُو الحَرْبِ إن نَظْفَرْ فَلَسْنَا بِفُحَّشٍ ولا نحنُ مِنْ أَظْفَارِهـا نَتَوَجَّعُ
وكُنَّا شِهَاباً يَتَّقي النَّاسُ حَـرَّهُ ويَفْرُجُ عنهُ من يليهِ ويُسْفَـعُ[٢]

وبينما كانت المعارك تدور بين المسلمين والمشركين فقد كان هناك من يفخر من المشركين بما تحقَّق في غزوة أحد ناسياً صنيع المسلمين في بدر، ومن أولئك الشُّعراء عبد الله بن الزِّبعرى[٣] الذي افتخر في إحدى قصائده التي يقول فيها :

يا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُـلْ إِنَّما تَنْطِـقُ شَيْئاً قد فُعِـلْ
كَمْ قَتَلْنَا من كَرِيمٍ سَيِّـدٍ ماجِدِ الجَدَّيْنِ مِقْـدَامٍ بَطَلْ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ[٤]

فانبرى له حسَّان بن ثابت - ﷺ - يردّ عليه، ويبيِّن له أنّ الحرب سجال بين الطّرفين، وأنّ المسلمين قد نالوا من المشركين في أحد كما نال المشركون منهم، مذكِّراً إيَّاه بما لاقوه من الهزيمة في ((بدر))، وكيف قتل سادتهم، وهرب فرسانهم في تلك الموقعـة، وبـاءوا بالخزي والخـذلان، حيث يقول حسّان - ﷺ - :

ذَهَبَتْ بابْنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كَانَ مِنَّا الفَضْلُ فيها لو عَـدَلْ
ولقد نلتـم ونلنـا منكـمُ وكَـذَاكَ الحَرْبُ أحياناً دُوَلْ
نضعُ الأَسْيَافَ في أَكْتافِكُمْ حيثُ نَهْوِي عَلَلاً بعـد نَهَلْ
إِذْ تُولُّون عَلَى أَعْقَابِكُـمْ هُرَّباً في الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلْ[٥]

---

(١) جِلَادٌ : جمع جليدٍ وجَلْدٍ وهو الصَّلبُ .

(٢) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٣) هو عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس بن عدي بن سعد السَّهمي القرشي ، كان شديداً على المسلمين يهجوهم ويحرِّض المشركين عليهم ، وقد أسلم بعد فتح مكَّة ، واعتذر من النَّبيِّ - ﷺ - عمَّا بدر منه . وكانت وفاته سنة ١٥هـ . (انظر : ابن الأثير، عز الدين، **أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة**، دار الشعب، القاهرة، د.ت، ٣/١٦٠) .

(٤) الجبوري، يحيى، **شعر عبدالله بن الزِّبعرى**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ، ص ٤١ – ٤٢.

(٥) الرَّسَلُ : الإبل المرسلة بعضها في إثر بعض .

إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صادقـــــــــةً فأجأناكـــــم إلى سَفْحِ الجَبَلْ
وعَلَوْنَـــا يَوْمَ ((بَدْرٍ)) بالتُّقَى طَاعةِ اللهِ، وتَصْدِيقِ الرُّسُلْ
وتَرَكْنـــــا في قُرَيْـــــشٍ عَوْرَةً يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَـــــادِيثَ المَثَلْ(١)

أمَّا كعب بن مالك - ﷺ - فيردُّ في قصيدته اللاميَّة على كلٍّ من تطاول علي المسلمين من شعراء قريش، ويوضِّح لهم أنَّه إذا كان هناك من قادة المسلمين من قُتل في ((أُحد))، وهو ما أفرح المشركين وشعراءهم فإنَّ عليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى ما أصابهم في ((بدر))، وما واجهوه من صور البطولة والتَّضحية التي أبداها المسلمون، حيث يقول :

أَبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُـــهُ والصِّدْقُ عندَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بقتلانا سَرَاتَكُـــــمُ أَهْلَ اللِّواءِ، ففيـــم يكثرُ القِيـــــلُ؟
ويومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَـــا مَـــــــدَدٌ فِيهِ مع النَّصر مِيْكَالٌ وجبريـــــلُ
إِنْ تَقْتُلُونـــا فَدِينُ اللَّـــهِ فِطْرَتُنا والقَتْلُ في الحقِّ عنـــد اللهِ تَفْضِيلُ
وإِنْ تَرَوْا أَمْرَنا في رأيكُم سَفَـــهاً فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإسلامَ تَضْـــلِيلُ
فَلَا تَمَنَّوْا لِقَاحَ الحَرْبِ واقْتَعِـــدُوا إِنَّ أَخَا الحَرْبِ أَصْدَى اللونِ مَشْعُولُ(٢)
إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبـــاً تَرَاحُ لَهُ عُرْجُ الضِّباعِ له خَذْمٌ رَعَـــــابِيلُ(٣)
إِنَّا بنُو الحَرْبِ نَمْرِيهـــا ونَنْتِجُهـــا وعندنا لِذَوِي الأَضْغَانِ تنكـــيلُ(٤)

فقد أثَّرت غزوة أُحد كما يظهر في نفوس الشُّعراء في عهد النَّبيِّ - ﷺ -، ودعتهم إلى التَّجاوب معها، والتَّعبير عن مواقفها وأحداثها، والتَّصدِّي لمن حاول الإساءة للنَّبيِّ ﷺ - وللمسلمين، وهو ما قام به شعراء المشركين بعد الموقعة، الأمر الذي دعا شعراء المسلمين إلى الرَّدِّ عليهم، وكشف أكاذيبهم وتخرُّصاتهم، وبيان أثر الإسلام في كلِّ ما تحقَّق للمسلمين من عزَّة ومنعة.

غزوة الخندق :

في السَّنة الخامسة للهجرة تجمَّعت قوى الشِّرك لمحاربة النَّبيِّ - ﷺ - والمسلمين بالمدينة، وتزعَّم أبو

(١) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٩٣ – ٩٤ .
(٢) لِقَاحُ الحَرْبِ : زيادتها ونموُّها . وأصدى اللون : لونُه بين السَّواد والحُمْرَة . ومَشْعُولٌ : أي متَّقد متلهِّب .
(٣) تَرَاحُ : تفرحُ وتهتزُّ . والخذمُ : قطعُ اللَّحم . والرَّعابيلُ : المُتَقَطِّعةُ .
(٤) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

سفيان تلك الجموع من القرشيِّين ومن والاهم من غطفان والقبائل المجاورة، ويأتي الجميع إلى المدينة المنوّرة قاصدين القضاء على الإسلام بحافلهم وعدَّهم الحربيَّة التي لم يكن للمسلمين قِبَل بها، و لم يكتفوا بذلك بل تعاهدوا مع يهود بني قريظة في حصونهم حول المدينة من أجل القضاء على المسلمين.

ولَّما علم رسول الله - ﷺ - بتآمرهم وتحزُّبهم جمع المسلمين وأعلمهم ما عزم عليه أبو سفيان ومَنْ والاه من غطفان واليهود، وتشاور معهم، وانتهت مشورتهم بحفر خندق حول المدينة حتَّى يمكنهم التَّحصُّن فيها، فإذا دهمهم العدوّ نالوه ولا ينالهم، وبدأ المسلمون حفر الخندق، وكان الرَّسول - ﷺ - أوَّل من بدأ بالحفر ترغيباً للمسلمين في الأجر، وما كاد الرَّسول - ﷺ - ينتهي من حفر الخندق حتَّى أقبلت قريش ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، وغطفان بعشرة آلاف من أحابيشهم حتَّى نزلوا بجانب أُحد(١)، وخرج رسول الله - ﷺ - بثلاثة آلاف من المسلمين، وجعل ظهور فرسانه إلى جبل فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، فخرج من بين صفوف المشركين عمرو بن ود العامري – وكان مُعْلَماً – " وقال : مَنْ يُبارز؟ فخرج له من المسلمين عليٌّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقال له: يا عمرو إنَّك عاهدتَ الله ألَّا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلَّا أخذتها منه، فقال له : أَجَلْ، فقال له عليٌّ : فإنِّي أدعوك إلى النِّزال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فو الله ما أُحبُّ أن أقتلك، فقال له عليٌّ : لكنِّي والله أُحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب وجهه، ثمّ أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ - رضي الله عنه - وخرجت خيلهم منهزمة، حتَّى اقتحمت من الخندق هاربةً " (٢).

وقد وصف عليٌّ - رضي الله عنه - ذلك الحدث والموقف الشُّجاع الَّذي أبان عن قوَّة المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام في أبيات شعريَّة، قال فيها :

نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... ونَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّـدٍ بِصَـوَابِي
فَصَدَدْتُ حين تَرَكْتُه مُتَجَدِّلاً ... كالجِـذْعِ بينَ دَكَادِكٍ ورَوَابِي(٣)
وعَفَفْـتُ عَنْ أَثْوَابِهِ ولَوَ انَّني ... كُنْـتُ المُقَطَّرَ بَزَّني أَثْـوَابِي(٤)
لَا تَحْسَبَنَّ اللهَ خَـاذِلَ دِينِـهِ ... ونَبِيِّهِ يـا مَعْشَرَ الأَحْـزَابِ(٥)

وقد شكَّك ابن هشام في نسبة هذه الأبيات لعليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-(٦).

---

(١) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) **المصدر السابق**، ٢/٢٢٥ .

(٣) مُتَجَدِّلاً لاصقاً بالأرض . والجِذْعُ : فرع النَّخلة . والدَّكْدَكُ والدَّكْدَاكُ : أرضٌ فيها غلظ، والجمعُ دَكَادِكُ .

(٤) المُقَطَّرُ : الذي ألقي أحد قطريه ، أي جنبيه ، والقطر : الجانب . وبزَّني : سلبني .

(٥) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٢٢٥ .

(٦) **المصدر السابق**، ٢/٢٢٥ .

ولم يكن تحزُّب الأعداء واتِّحادهم لحرب المسلمين أمراً يثير الهيبة أو الخوف في قلوب المجاهدين، الذين نذروا أنفسهم للدِّفاع عن عقيدتهم، ونصرة نبيِّهم - ﷺ - حيث لقاء الأعداء هو لقاء الشَّجاعة، والنُّصرة، والتَّضحية لقوم دَرِبوا على القتال، وعَلَّموا أنفسهم في الحرب حتَّى أصبحوا ظاهرين للنَّاس جميعاً، وكأنَّهم أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عن رسالتهم الخالدة... وهي المعاني التي أشار إليها كعب بن مالك -رضي الله عنه- في قصيدته التي قالها يوم الخندق، حيث قال :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُـهُ ... بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ(١)
فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيوفُهـا ... بينَ المِذَادِ وبينَ جِزْعِ الخَنْدَقِ(٢)
دَرِبُوا بِضَرْبِ المُعْلِمِينَ(٣) وأَسْلَمُوا ... مُهْجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشْرِقِ
في عُصْبَـةٍ نَصَرَ الإِلَـهُ نَبِيَّـهُ ... بِهِمُ، وكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ(٤)

ويمضي كعب - رضي الله عنه - في قصيدته إلى وصف السِّلاح، فيصوِّر الدُّروع تحكي حلقاتها في سردها المحكم وشكلها الموثَّق أحداق الجنادب، فهي مستديرة الحلق، تشمِّرها للحرب حمائل السُّيوف الصَّارمة، حيث يقول :

في كلِّ سَـابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهـا ... كَالنِّهْيِ(٥) هَبَّتْ رِيحُه المُتَرَقْرِقِ
بَيْضَـاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهـا ... حَدَقُ الجَنَادِبِ ذَاتَ شَكٍّ مُوْثَقِ(٦)

حَدْلَاء يَحْفِزُها نِجَـادٌ(٧) مُهَنَّدٍ ... صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ
تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا ... يَوْمَ الهِيَاجِ وكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ(٨)

---

(١) المعمعة : اختلاط الأصوات وشدَّةُ زحلها. الأَبَاءُ : القصبُ ، ومعمعةُ الأباء: صوت الحريق في القصب .
(٢) المأسدةُ : الموضع الذي تجتمع فيه الأُسود . وتُسَنُّ : تُحدُّ . والمِذَادُ : موضعٌ بالمدينة حيث حُفر الخندق ، وقيل هو بين سلع وخندق المدينة. والجزعُ : الجانب .
(٣) المُعْلِمِينَ : الذين يُعلِّمون أنفسهم في الحرب بعلامة يُعرفون بها .
(٤) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٤٤ .
(٥) السَّابغة : الدُّروع الكاملة . النِّهْي : الغديرُ من الماء .
(٦) القَتِيرُ : مساميرُ الدُّروع . والجنادبُ : ذكور الجراد . والشَّكُّ : إحكام السَّرد .
(٧) الحَدْلاء : الدُّروع المحكمة أو المدوَّرة الحلق. ويحفزها: يرفعها. والنِّجاد : حمائل السُّيوف.
(٨) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٤٥ .

والبيت الأخير يصوِّر أهمِّيَّة التّقوى والإيمان في الحروب التي يخوضها المسلمون ؛ إذ ليس من طبعهم أن يركنوا إلى العدَّة المادِّيَّة دون أن يدَّخروا في نفوسهم زاد التَّقوى الذي يوصلهم إلى غايتهم الكبرى التي يبتغونها من وراء نصرتهم للإسلام.

أمَّا الإعداد للمعركة – وهو الجانب الذي أُمر به المسلمون وهم يواجهون أعداءهم – فيشير إليه كعب بن مالك من خلال إعداد الخيول الأصيلة المضمَّرة، التي تصعد بفرسانها إلى حلبة القتال، وتمكّنهم من اصطياد أعدائهم،والظَّفر عليهم، يقول :

وَنُعِدُّ للأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ ... وَرْدٍ ومَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ(١)
تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ ... عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُودُ طَلٍّ مُلْثِقِ(٢)
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ ... تَحْتَ العَمَايَةِ بالوَشِيجِ المُزْهِقِ(٣)
أَمَرَ الإِلَهُ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ ... فِي الحَرْبِ، إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتَكُونَ غَيْظاً لِلْعَدُوِّ وحُيَّطاً ... للدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ النُّزَّقِ(٤)
ويُعِينُنَا اللهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ ... مِنْهُ، وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
ونُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا ونُجِيبُه ... وإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لم نُسْبَقِ
ومَتَى يُنَادِ إلى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا ... وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ(٥) فيها نُعْنَقِ(٦)

أمَّا حسَّان بن ثابت - رضي الله عنه - فيتصدَّى للرَّدِّ على شاعر الكفَّار آنذاك عبد الله بن الزِّبعرى الذي أخذ يفتخر بموقف قومه يوم الخندق، ويتطاول على المؤمنين، وذلك في قصيدته البائيَّة(٧). حيث نظم حسَّان بائيَّته التي يردُّ فيها على ابن الزِّبعرى، ويخبره بأنَّ قومه قد وردوا المدينة، وحاولوا قتل الرَّسول - ﷺ - واقتناص غنائم المسلمين، لكنَّهم عادوا بحقدهم خائبين لم ينالوا إلَّا اليأس والقنوط، وكان الأجر والثَّواب

(١) المقلَّص من الخيول: طويل القوائم ضامر البطن. والورد: الفرس الأشقر الذي حمرة لونه ذاهبة إلى الصُّفرة . والمحجول : الذي في قوائمه بياض يخالف سائر لونه . والأبلق: إذا تجاوز البياض إلى عضديه وفخذيه .

(٢) ترد : تُسرع. الكُمَاة: جمع كَمِيٍّ وهو الشُّجاع. المُلْثِقُ: ما يكون عن الطَّلِّ من زلقٍ وطين .

(٣) العِمَايَة: سحابةُ الغُبَار وظلمتُه . والوشيجُ: الرِّماحُ . المُزْهِقُ: المُذْهِبُ للنُّفوس .

(٤) دَلَفَتْ : تقدَّمت . النُّزَّقُ : الطَّائشون ، السَّيئو الخلق .

(٥) الحَوْمَاتُ: مواطن القتال ، واحدها حَوْمَةٌ .

(٦) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٧) انظر : الجبوري، **شعر عبدالله بن الزِّبعري**، ص ٢٩ ، والقصيدة مطلعها :

حَيِّ الدِّيَارَ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِها ... طُولُ البِلَى وتَرَاوُحُ الأَحْقَابِ

للمؤمنين المقاتلين مع رسول الله - ﷺ - الذي اطمأنَّ وصحابته على النَّصر المبين في الخندق، حيث يقول:

حتَّى إذَا وَرَدُوا المدينةَ وارْتَجَوْا ... قَتْلَ النَّبيِّ وَمَغْنَمَ الأَسْلابِ
وغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بِغَيْظِهِمُ عَلَى الأَعْقَابِ
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ
وكَفَى الإِلَهُ المؤمنينَ قِتَالَهُمْ ... وأَثَابَهُمْ في الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ(١)

ولم يعتبر ضرار بن الخطَّاب(٢) انهزام فرسان قومه من المشركين يوم الخَنْدَق خسارةً، بل يتوعَّد بأنَّ لهم زيارة أخرى ستكون أعنف وأشدّ بجمع من بني كنانة، حيث يقول:

ومُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بنا الظُّنونَا ... وقَدْ قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا(٣)
وسوفَ نَزورُكُم عَمَّا قَرِيبٍ ... كَمَا زُرْنَاكُمُ مُتَوَازِرِينَا
بِجَمْعٍ مِن كِنَانَةَ غير عُزْلٍ ... كَأُسْدِ الغَابِ قد حَمَتِ العَرِينَا(٤)

وقد ردَّ كعب بن مالك - ﷺ - على الشَّاعر ضرار الذي فخر في قصيدته بمجموعة من القبائل العربيَّة واليهود الذين جاءوا لمحاربة المسلمين يوم الخندق، مذكِّراً إيَّاه بأنَّهم قوم صابرون أصحاب عقيدة، فيهم النَّبيُّ - ﷺ - الذي كان لهم المؤازر الصَّادق، وأنَّهم يقاتلون ظالمين، عاقِّين، كفرة، حيث يقول:

وسَائِلَةٍ تُسائِلُ ما لَقِينَا ... ولو شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لا نَرَى لِلَّهِ عِدْلاً(٥) ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا

وكانَ لنا النَّبيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَا
نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وعَقُّوا ... وكانوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَا(٦)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِينَا
وفي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ ... بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاغِبِينَا(٧)

---

(١) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ١٢٠ .
(٢) هو ضرار بن الخطَّاب بن مرداس القرشي الفهري ، فارس شاعر ، قاتل المسلمين ، واسلم يوم فتح مكَّة . (انظر: ابن عبدالبر، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٨٢هـ، ١/٣٣٧) .
(٣) العَرَنْدَسَةُ : الشَّديدةُ القويَّة ، يريد الكتيبة . والطَّحون: التي تطحن كلَّ ما مرَّت به .
(٤) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢٥٤ – ٢٥٥ .
(٥) العِدْلُ : المِثْلُ .
(٦) المُرْصِدُ : المُعِدُّ للأمر عُدَّته .
(٧) المِرَاحُ : النَّشاط . والشَّاغبين : الذين ديدنهم الشَّغب وتهييج الشَّر .

بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ كَأَنَّ أُسْـــداً ... شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِـينَ العَرِينَـــا
لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللَّـــهَ حتَّى ... نكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَـا
ويَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا ... وأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَـزِّبِينَـــا
بأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَـهُ شَرِيكٌ ... وأنَّ اللهَ مَـــوْلَى المُؤْمِنِينَـا(١)

وقد أراد الرَّسول - ﷺ - أن يُؤمِّن المدينة وحدودها بعد موقعة الخندق مع قريش وبخاصَّةمن الفتنة لتي كان يوقد جذوتها يهود بني قريظة وبني النَّضير، الذين اشتركوا في موقعة الخندق مع قريش، وقصدوا ثارة الفتنة بين النَّاس في المدينة أثناء الموقعة، حيث نقضوا عهود الأمان التي أبرمها المسلمون، ولجأوا للغدر والمكيدة، لأجل ذلك وجَّه النَّبيُّ - ﷺ - جيشه لمحاربتهم، حيث حاصرهم في حصونهم، وانتصر عليهم، وخيَّم الذُّلُّ عليهم وعلى حصونهم جزاء ما فعلوه مع النَّبيِّ - ﷺ - بنقضهم العهد، وهذا ما عبَّر عنه حسَّان بن ثابت - رضي الله عنه - بقوله:

لَقَدْ لَقِيَتْ قُرَيْظَةُ مَا سَاءَهـا ... وحَـــلَّ بِحِصْنِها ذُلٌّ ذَلِيـــلُ
فَمَا بَرِحُوا بِنَقْضِ العَهْدِ حَتَّى ... غَـــزَاهُمْ في دِيَارِهِمُ الرَّسُولُ
أَحَاطَ بِحِصْنِهِمْ مِنَّا صُفُوفٌ ... لَهُ مِنْ حَرِّ وَقْعَتِهَـــا صَلِيـــلُ
وَصَارَ المؤمنون بِدَارِ خُلْـــدٍ ... أَقَـــامَ لَهُمْ بِهَا ظِلٌّ ظَلِيـــلُ(٢)

غزوة مؤتة :

كانت غزوة مؤتة – في السَّنة الثَّامنة للهجرة – أوَّل صدام مسلَّح يقع بين جيش المسلمين وجيش الرُّوم لذين أخذوا يراقبون قوَّة جيش المسلمين المتنامية، وكان سبب هذه الغزوة أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير ((بصرى)) من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شَمِّر الغسَّاني، فلمَّا نزل مؤتة عرَّض له شرحبيل بن عمرو الغسَّاني وقتله، فلمَّا بلغ الأمر رسول الله - ﷺ - اشتدَّ ذلك عليه، وجهَّز جيشاً لمقاتلة ملوك الرُّوم(٣). وقد أمر - ﷺ - مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف من المسلمين، وندب لنَّاس وقال لهم : إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على النَّاس، فإنْ أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس، فإنْ قتل ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم(٤). والتقى الجيشان جيش

(١) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .
(٢) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٢٤٥ .
(٣) انظر : الوكيل، محمد السيد، **تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ** ، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٤٠٨هـ، ص ٢٣٧ .
(٤) انظر : ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٣٧٣/٢ .

المسلمين وجيش الرُّوم – الَّذي كان يقدَّر عدده بمائتي ألف مقـاتل – في مكان يقال له مؤتة، فقاتل زيد بن حـارثة - ﷺ - براية رسول الله - ﷺ - حتَّى قُتِل في رماح القوم، ثمّ أخذ الرَّاية من بعده جعفر بن أبي طالب - ﷺ - فقاتل بها حتَّى إذا ألحمه[1] القتال، وأحاط به العدو من كل جانب، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها حتى لا تقع في يد العدوّ، ثم أقبل يقاتل وهو يقول:

يا حَبَّـذَا الجنَّةُ واقْتِرَابُها طَيِّبَـةً وبَـارداً شَرَابُهـا
والرُّومُ رُومٌ قد دَنَا عَذَابُها كَـافِرَةٌ بعيدةٌ أَنْسَابُهـا
عَلَيَّ إذْ لاقَيْتُهـا ضِرَابُهـا[2]

ثمَّ قاتل حتَّى قُتل - ﷺ -.

ثمّ أخذ الرَّاية من بعده عبد الله بن رواحة - ﷺ - فتقدَّم يقاتل الرُّوم، فداخل نفسه شيء من روع لا يخلو منه الموقف، فجعل يحفِّز نفسه ويشدُّ من عزيمتها، وهو يردِّد بعض الأبيات الشِّعريَّة التي يقول فيها :

أَقْسَمْـتُ يَـا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّـهْ لَتَنْزِلِـنَّ أَوْ لَتُكْـرَهِنَّهْ
إنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّةْ[3] مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِـينَ الجَنَّـةْ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّـةْ هَلْ أَنْتِ إلَّا نُطْفَةٌ في شَنَّـةْ[4]

ثمَّ تقدَّم يقاتل، فأُصيبت إصبعه، فارتجز قائلاً :

هَلْ أَنْتِ إلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبِيـلِ اللَّـهِ مَا لَقِيـتِ
يَا نَفْسُ إلَّا تُقْتَلِي تَمُـوتِي هذا حِيَاضُ المَوْتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيْتِ فقـد لَقِيـتِ إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيـتِ
وإنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِـيتِ[5]

فقاتل حتَّى قُتل - ﷺ -.

وجاء في الخبر أنَّه " لَمَّا ودَّع عبد الله بن رواحة - ﷺ - مَنْ وَدَّعَ بكى، فقالوا : ما يُبكيك يا ابن

(١) ألحمه القتال : نشب فيه فلم يجد مخلصاً .

(٢) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٣٧٨/٢ .

(٣) أَجْلَبَ القومُ : صاحوا واجتمعوا . والرَّنَّةُ : صوتٌ فيه ترجيع يشبه البكاء .

(٤) ابن رواحة،عبد الله (٨هـ/٦٢٩م)، **ديوان عبدالله بن رواحة – دراسة في سيرته وشعره**، تحقيق وليد قصاب، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ١٤٠٨هـ، ص ١٥٣.

(٥) **المصدر السّابق** ص ١٥٤ .

رواحة؟ فقال : أما والله ما بي من حبِّ الدُّنيا ولا صبابة بكم، ولكنِّي سمعت رسول الله - ﷺ - يقرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ يذكر فيها النَّار ﴿ وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضيا ﴾[١]، فلست أدري كيف لي بالصَّدر بعد الورود ؟ فقال المسلمون: صَحِبَكُم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين"[٢]، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنَّني أَسْأَلُ الرَّحمـــــــنَ مَغْفِـــرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا[٣]
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِـــــــزَةً ... بحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ والكَبِدَا[٤]
حَتَّى يُقَالُ إذا مَرُّوا عَلَى جَـــدَثِـــي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا[٥]

وكان المسلمون لَـــمَّا نزلوا ((مَعَان)) من أرض الشَّام هالهم ما رأوا من كثرة عدد الرُّوم وما يملكونه من عتاد، وبدأوا يفكِّرون في ذلك، وهل يرسلون إلى الرَّسول - ﷺ - يخبرونه بذلك أم لا ؟ فقام عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - يشجِّعهم ويستحثُّهم على القتال، وهو يقول لهم : ((والله إنَّ التي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون الشَّهادة، وما نُقاتل النَّاس بعددٍ ولا قوَّةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقاتلهم إلَّا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقـــوا فإنَّما هي إحدى الحسنـــيين، إمَّا ظهور، وإمَّا شهادة))[٦]. فتشجَّع النَّاس وقالوا : قد - والله - صدق ابن رواحة، وأنشد في ذلك الموقف :

جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنْ أَجَـــأٍ وفَرْعٍ[٧] ... تُغَرُّ من الحَشِـــيشِ لها العُكُومُ[٨]

حَذَوْنَاها مِنَ الصَّوَّانِ سَبْـــــتاً ... أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَـــهُ أَدِيمُ[٩]
أَقَـــامَتْ لَيْلَتَيْنِ على مَعَـــــانٍ ... فَأَعْقَبَ بَعْدَ فَتْرَتِهـــا جُمُومُ[١٠]
فَرُحْنَا والجِيَادُ مُسَوَّمَـــاتٌ[١] ... تَنَفَّسُ في مَنَاخِرِها السُّمُـــومُ

---

(١) سورة مريم ، الآية ٧١ .
(٢) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ص ٣٧٣/٢ - ٣٧٤ .
(٣) ذات فرغ: الفرغُ مخرجُ الماء من الدَّلو . والزَّبدُ: الرَّغوة .
(٤) الحرَّان: العطشان . مُجهزة : مسرعة متمِّمة، يقال: أجهز على الجريح إذا أماته.
(٥) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٤٧ .
(٦) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٣٧٥/٢ .
(٧) أجأ : أحد جبلي طيء ، والآخر سلمى . والفرع: اسم موضع .
(٨) تغرُّ : تطعم شيئاً بعد شيء . والعُكومُ: جمع عِكْم ، وهو الجنب .
(٩) الصَّوَّان: حجارةٌ مُلس ، واحدها صوانة . أزل : أملس . الأديم : الجلد.
(١٠) الجموم: النَّشاط والرَّاحة .

فلا وأبي مآب[٢] لِنَأْتِيَنْهـــا وإنْ كَانَتْ بها عَرَبٌ ورُومُ
فَعَبَّأْنَـــا أَعِنَّتَها فَجَـاءَتْ عَوَابِسَ، والغُبارُ لها بَرِيمُ[٣]
بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ البَيْضَ فيـهِ إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُها النُّجُومُ[٤]
فَرَاضِيَةً[٥] المَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَـا أَسِنَّتُها، فَتَنْكِـحُ أَوْ تَئِيمُ[٦]

وفي ليلة السَّفر إلى مؤتة، وبينما كان الطَّريق طويلاً وشاقّاً، كان عبد الله بن رواحة - ﷺ - يستغرق في الأمل بالشَّهادة والفوز برضوان الله – عزَّ وجلَّ – إذ ذهب يناجي ناقته، ويبشِّرهـا بتحريرها من الأسفار، فلا عـودة إلى بلاد النَّخيل، لأنَّه عزم في قرارة نفسه على شدِّ الرِّحال إلى جوار ربِّه – جلَّ وعـلا – حيث يقول :

إِذَا أَدَّيْتِنِي وحَمَلْتِ رَحْـلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الحِسَـاءِ[٧]
فَشَأْنُكِ أَنْعُمٌ، وَخَلَاكِ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْـلِي وَرَائِي
وجَاءَ المُسلمون وغادَرُوني بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِيَ الثَّوَاءِ
وَرَدَّكِ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إِلَى الرَّحمنِ مُنْقَطِعَ الإِخَـاءِ
هُنَالِكَ لَا أُبَالِي طَلْـعَ بَعْلٍ[٨] ولَا نَخْـلٍ أَسَافِلُهـا رِوَاءِ[٩]

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تعلُّق الشَّاعر بالشَّهادة، والسَّير لأجلها على راحلته، التي بلغته رحلته المأمولة، ولقي ما كان يرجوه من الاستشهاد في سبيل الله، والفوز برضوانه – عزَّ وجلَّ – وهي صورة مؤثِّرة تعكس روح التَّضحية والفداء التي قدَّمها أولئك المجاهدون في تلك الغزوات.

(١) مسوَّمات: معلَّمات .
(٢) مآب: اسم مدينة في طرف الشَّام من نواحي البلقاء .
(٣) البريم في الأصل: خيطان مختلفان أحمر وأبيض، وكلّ ما فيه لونان مختلطان فهو بريم.
(٤) اللجبُ : اختلاط الأصوات وكثرتها . والبَيْضُ : ما يوضع على الرَّأس من الحديد . والقوانس: جمع قونس ، وهو أعلى البيضة .
(٥) راضيةٌ : أي مرضيَّة .
(٦) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٤٩ – ١٥٠ .
(٧) أدَّيتي : أوصلتي . والحِساءُ: جمع حِسيٍّ ، وهو ماء يغور في الرَّمل .
(٨) البَعْلُ : النَّخْلُ الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السَّقي ، ويقال : استبعل النَّخل : أي: شرب بعروقه .
(٩) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٥١ .

فتح مكَّة :

أظهرت الغزوات والمعارك التي خاضها المسلمون في عصر صدر الإسلام عظمة النَّبيِّ الكريم القائد -ﷺ-، الذي قاد جيش المسلمين في مختلف الغزوات، وأبان عمَّا يتمتَّع به من مزايا أخلاقيَّة وإنسانيَّة حتَّى في تعامله مع خصومه وأعدائه الذين تحالفوا على حربه وشنِّ الغزوات على المسلمين، ففي فتح مكَّة في السَّنة الثَّامنة للهجرة وقف الرَّسول الكريم - ﷺ - ذلك الموقف الأخلاقي والإنساني عندما فتح مكَّة، ولقي خصومه الذين آذوه، وأخرجوه من بلده، وحاربوه، حيث وقف أمامهم وهو يقول: ((يا معشر قريش، ما ترون أنِّي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال : اذهبوا فأنتم الطُّلقاء)) [١].

وقد واكب الشِّعر ذلك الفتح العظيم، وأشاد الشُّعراء بما تحقَّق للمسلمين في هذا الفتح من عزٍّ ومنعة ونصر للإسلام، حيث أظهرت القصائد الشِّعريَّة قدرة جيش المسلمين على الفتح، وتمكين الله تعالى لهم. ومن ذلك ما يظهر في قول بُجير بن زهير[٢] يصف فتح مكَّة، وما رافقه من إعداد مناسب من قبل المسلمين، حيث كان الوقت صباحاً والإعداد قويّاً، وتهيئة المجاهدين على أفضل ما يكون من رجال سُلَيْمٍ ومُزَيْنَةَ وغيرها، إذ انهالوا على المشركين ضرباً بالسُّيوف، وطعناً بالرِّماح، ورمياً بالسِّهام، وقد هالهم فرسان المسلمين وهم يجولون في رحاب مكَّة في زهو كبير ؛ لأنَّهم آمنوا بالله وأطاعوا رسوله، وما كان على المشركين إلَّا الخضوع والتَّسليم، حيث يقول:

ضَرَبْنَاهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ النَّـــ ـــبِيِّ الخَيْرِ بِالبِيضِ الخِفَـــافِ
صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعٍ[٣] مِنْ سُلَيْمٍ وَأَلْـــفٍ مِن بَنِي عُثْمَانَ وَافِ
نَطَـا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبـاً وطَعْنـاً وَرَشْقـاً بالمريَّشَةِ اللِّطَـــافِ[٤]

تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفاً كَمَا انصَاعَ الفُوَاقُ مِنَ الرَّصَـافِ[٥]
فَرُحْنَا والجِيَادُ تَجُـــولُ فِيهِـمْ بِأَرْمَاحٍ مُقَوَّمَـــةِ الثِّقَـافِ

---

(١) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٤١٢/٢ .

(٢) هو : بجير بن زهير بن أبي سلمى المُزني ، أسلم قبل السَّنة السَّابعة للهجرة ، ودعا أخاه كعباً للإسلام ، وشهد مع المسلمين بعض الغزوات ومنها فتح مكَّة. (انظر: العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصَّحابة**، ١٤١/٢) .

(٣) بسبع : أي بسبع مائة . وبنو عثمان : هم مُزينة .

(٤) نَطَا : أراد نَطَأْ ، فخفَّف الهمزة . والرَّشْقُ : الرَّمي السَّريع . والمريشةُ: يعني السِّهام ذوات الريش .

(٥) الحفيفُ : الصَّوت . وانصاع: انشقَّ . والفواقُ هنا: الفوق ، وهو طرف السَّهم الذي يلي الوتر . والرَّصافُ : جمع رصفة ، وهي عصبةٌ تلوى فوق السَّهم .

فَأُبْنَا غَـانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَـا وآبُوا نَادِمِـينَ عَلَى الخِـلَافِ
وأَعْطَيْنَـا رَسُـولَ اللهِ مِنَّـا مَوَاثِقَنَا عَلَى حُسْـنِ التَّصَافِي
وقد سَمِعُوا مَقَـالَتَنَا فَهَمُّوا غَـدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِـرَافِ

ويتوقَّف العبَّاسُ بن مرداس السُّلمي(١) - ﷺ - عند فتح مكَّة بعد أن اشترك مع قومه من بني سُلَيْم في ذلك الفتح، حيث يبيِّن في إحدى قصائده القوَّة العدديَّة لقومه الذين شاركوا تحت إمرة النَّبيِّ الكريم - ﷺ - موضِّحاً ما كانوا عليه من الإقدام، والبسالة، والتَّضحية من أجل تحقيق النَّصر، حيث يقول :

مِنَّا بِمَكَّة يومَ فَتْحِ محمَّـدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ البِطَاحُ(٢) مُسَوَّمُ
نَصَرُوا الرَّسُولَ، وشَاهَدُوا أَيَّامَهُ وشِعَارُهُمْ(٣) يومَ اللِّقاءِ مُقَدَّمُ
في مَنْزِلٍ ثَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُـمْ ضَنْكٍ كَأَنَّ الهَامَ فيهِ الحَنْتَـمُ(٤)
جَرَّتْ سَنَابِكَها بِنَجْدٍ قَبْلَهـا حتَّى اسْتَقَادَ لها الحِجَازُ الأَدْهَـمُ
اللَّـهُ مَكَّنَهُ لَـهُ وأَذَلَّهُ حُكْمُ السُّيوفِ لَنَـا وحَدٌّ مِزْحَمُ(٥)
عَوْدُ الرِّيَاسَةِ شَامِخٌ(٦) عِرْنِينُهُ مُتَطَلِّعٌ ثغرَ المَكَـارِمِ خِضْرِمُ(٧)

وكان الزَّهو والفخار عندبني سُلَيْم الذين نصروا رسول الله - ﷺ - في فتح مكَّة وفي يوم حُنين على لسان الشَّاعر العبَّاس بن مرداس السُّلمي الذي يفخر بفرسان قومه المسلَّحين والضَّاربين فرسان الشِّرك ضرباً لا هوادة فيه، إذ يقول :

واذْكُر بَلَاءَ سُلَيْمٍ في مَوَاطِنِها وفي سُلَيْمٍ لِأَهْـلِ الفَخْرِ مُفْتَخَـرُ
قَوْمٌ هُمُ نَصَرُوا الرَّحمنَ واتَّبَعُـوا دِينَ الرَّسُولِ، وأَمْرَ النَّاسِ مُشْتَجِرُ
الضَّارِبُونَ جُنُودَ الشِّرْكِ ضَاحِيَـةً بِبَطْنِ مَكَّةَ، والأَرْوَاحُ تَبْتَـدِرُ

---

(١) هو : العبَّاس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السُّلمي ، يكنَّى أبا الهيثم ، وهو من شعراء البادية ، أسلم قبيل فتح مكَّة ، وشارك مع قومه في الجهاد ونصرة الإسلام ، توفي سنة ١٨هـ . (انظر: العسقلاني، **الإصابة**، ٣٤٢/١) .

(٢) البِطاحُ : جمع بطحاء ، وهي الأرض السَّهلة المتسعة .

(٣) شعارهم: علامتهم في الحرب .

(٤) ضنك : ضيِّق . والهام : الرؤوس . والحنتم: الحنظل .

(٥) مزحم : كثير المزاحمة ، يريد أنَّ حدَّهم غالب .

(٦) العَوْدُ (هنا) : الرَّحلُ المُسنُّ . وشامخٌ : مرتفع ، والخضرمُ: الجواد الكثير العطاء .

(٧) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٤٢٦/٢ – ٤٢٧ .

حتَّى دفَعْنَا وقَتْلَاهُمُ كأَنَّهُـــمُ نَخْلٌ بِظَاهِرَةِ البَطْحَاءِ مُنْقَعِرُ[١]
ونَحْنُ يَوْمَ حُنَيْنٍ كَانَ مَشْهَدُنَـــا للدِّينِ عِزّاً، وعِنْدَ اللهِ مُدَّخَـرُ
إذْ نَرْكَبُ المَوْتَ مُخْضَرّاً بَطَـائِنُـــهُ والخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْها سَاطِعٌ كَدِرُ[٢]
تَحْتَ اللِّوَاءِ مَعَ الضَّحَّاكِ يَقْدُمُنَـــا كَمَا مَشَى اللَّيْثُ في غَابَاتِهِ الخَـدِرُ[٣]
وقد صَبَرْنَا بِأَوْطَاسٍ أَسِنَّتَنَـــا لِلَّـــهِ نَنْصُرُ مَنْ شِئْنَـــا ونَنْتَصِرُ[٤]

حيث تشير هذه الأبيات إلى شجاعة بني سُليم وتضحياتهم ضدَّ المشركين، فقد ركبوا الموت ببسالة وإقدام، وطوَّعوه لأمرهم ليتحوَّل إلى رقاب الكفَّار وصدورهم، فيتخطَّفهم المؤمنون ؛ ليكون النَّصر حليف المسلمين، وتتحقَّق بغيتهم في رفع راية الإسلام.

ويصف العبَّاس بن مرداس أيضاً معونة قومه للنَّبيِّ - ﷺ - في حنين، عندما أمدُّوه بأَلْفَي فارس نصروا رسول الله - ﷺ - وأبدوا مقاومةً عنيفةً ضدَّ المشركين، حتَّى تلاحمت الفرسان، وتغلَّب المسلمون على أعدائهم، حيث يقول :

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ مِنْ غَضَبٍ لَهُ بِأَلْفَيْ كَمِيٍّ لا تُعَدُّ حَوَاسِـرُهْ[٥]
حَمَلْنَا لَهُ في عَامِلِ الرُّمْحِ[٦] رَايَـةً يَـذُودُ بِهَـا في حَوْمَةِ المَـوْتِ نَـاصِرُهْ
ونَحْنُ خَضَبْنَاها دماً فَهْوَ لَوْنُهَـا غَـدَاةَ حُنَيْنٍ يومَ صفوان شَـاجِـرُهْ[٧]
وكُنَّا على الإسـلام مَيْمَنَـةً لَـــهُ وكَانَ لَنَا عَقْدُ اللِّوَاءِ وشَـاهِرُهْ
دَعَانَا فَسَمَّانَـا الشِّعَـــارَ مُقَدَّمَـــاً وكُنَّا لَهُ عَوْنَـاً عَلَى مَنْ يُنَـاكِرُهْ
جَزَى اللهُ خيراً مِن نَبِيٍّ مُحمَّـــداً وأَيَّدَهُ بالنَّصْرِ، واللهُ نَـاصِرُهْ[٨]

ولَـــمَّا انتهى أمر حُنين – وما دار فيها من أحداث- توجَّه المسلمون بقيادة الرَّسول - ﷺ - إلى الطَّائف لدعوة أهلها إلى الدُّخول في الإســـــلام، وبيان موقفهم منه، وكان مع الرَّكب المتَّجه إلى

(١) مُنْقَعِرٌ : مُنْقَلِعٌ من أصله .
(٢) سَاطِعٌ : غُبَارٌ متفرِّق . وكَدِرٌ : متغيِّر إلى السَّواد .
(٣) الخَدِرُ : الدَّاخلُ إلى خِدْره ، والخِدْرُ هنا : غابةُ الأسد .
(٤) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٤٦٦ – ٤٦٧ .
(٥) حواسره : جموعه الذين لا دروع عليهم ، يُقال : رجل حاسر ، إذا لم يكن عليه درع.
(٦) عامل الرُّمح : ما يلي السِّنان .
(٧) شَاجِرُه: أي مخالطه بالرُّمح ، وشجرت الرِّماح : إذا دخل بعضها في بعض .
(٨) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٤٦٨ – ٤٦٩ .

الطَّائف كعب بن مالك - ﷺ - الَّذي نظم قصيدته التي صور فيها مراحل صراع المسلمين، وانتزاعهم منطقة ((وَجٍّ)) بفرسان صناديد على خيل مدرَّبة، يقاتلون حتَّى تخضع قوى الشِّرك لطاعة الله ورسوله - ﷺ - حيث يقول في مطلع قصيدته :

قَضَيْنَـــا مِنْ تِهَامَةَ كُـلَّ رَيْبٍ وخَيْبَرَ، ثُمَّ أَجْمَمْنَا[1] السُّيُوفَا
نُخَيِّرُهَا، وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَـالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْساً أَوْ ثَقِيفَـــا
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ[2] إنْ لَمْ تَرَوْها بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنَّا أُلُوفَـا
وتَنْـزِعُ العُرُوشَ بِطَـنِ ((وَجٍّ)) [3] وتُصْبِحُ دُورُكُمْ مِنَّا خُلُوفَـا
ويَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْـلٍ يُغَادِرُ خَلْفَـهُ جَمْعـاً كَثِيفاً
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَفَـاتٌ يُزِرْنَ المُصْطَلِينَ بِهَـا الحُتُوفَا
كَأَمْثَالِ العَقَائِقِ أَخْلَصَتْـهَـا قُيُونُ الهِنْدِ لم تُضْرَبْ كَتِيفَـا[4]
تَخَالُ جَدِيَّةَ الأَبْطَالِ فِيـهَـا غَدَاةَ الزَّحْفِ جَادِيّاً[5] مَدُوفَـا[6]

وبعد هذه المقدِّمة التي أبان فيها كعب - ﷺ - عمَّا صنعه المسلمون مع أعداء الدَّعوة الذين لم يستجيبوا لنداء الحقِّ، انطلق بعد ذلك إلى إنذار المشركين بما ينتظرهم من سوء العاقبة إن لم يتَّبعوا الطَّريق الحقِّ، وإشهادهم بأنَّهم قادمون، فمن آثر السَّلام فليسلم بما جاء به المصطفى - ﷺ - ليعيش عيشة راضيةً، ومن لم يسلم، أو تحدِّثه نفسه بالموادعة، فليتحمَّل وزره ووزر من اتَّبعه، أو استجاب لنصحه، حيث ينطلق كعب في هذا المعنى فيقول :

أَجِدَّهُمُ أَلِيسَ لَهُمْ نَصِيـحٌ مِنَ الأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفَـا[7]
يُخَبِّرُهُـمْ بِأَنَّا قَدْ جَمَعْنَـا عِتَاقَ الخَيْلِ والنُّجُبَ الطُّرُوفَا[8]

---

(١) أَجْمَمْنَا : أَرَحْنَا .
(٢) الحَاضِنُ : المرأةُ التي تحضن ولدها .
(٣) وَجٌّ : من أسماء الطَّائف . (انظر: الحموي، ياقوت (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ، ٣٦١/٥).

(٤) العقائقُ : جمع عقيقةٍ ، وهي شعاعُ البرق . وكتيف : جمع كتيفة ، وهي الصَّفائح الحديد التي تستعمل في صنع الأبواب .
(٥) الجديَّةُ : الطَّريقةُ من الدَّم . والجاديُّ : الزَّعفران. ومدوفٌ : مخلوط بغيره .
(٦) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٧) أَجِدَّهُمُ : بكسر الجيم وفتحها بمعنى: أبجدٌ منك هذا، ونُصبت على طرح الباء. وعَرِيفاً : عارفاً .
(٨) عِتَاقُ : جمع عتيق . والنُّجُبُ : جمع نجيب . والطُّرُوف : جمع طِرْفٍ (بكسر الطَّاء)، وكلُّها صفات للخيل بمعنى : الكريمة الأصل .

وأنَّـــا قَدْ أَتَيْنَـــاهُمْ بِزَحْفٍ ... يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمُ صُفُوفَا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وكَـــانَ صلباً ... نَقِيَّ القَلْبِ مُصْطَبِراً عَزُوفَـا
رَشِيدَ الأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وعِلْمٍ ... وحِلْمٍ لم يَكُنْ نَزِقاً خَفِيفَـــا
نُطِيـعُ نَبِيَّنَـــا ونُطِيعُ رَبّاً ... هُوَ الرَّحمنُ كَانَ بِنَا رَؤُوفَـــا
فَإِنْ تُلْقُوْا إِلَيْنَـــا السِّلْمَ نَقْبَلْ ... ونَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُداً وَرِيفَا(١)
وإِنْ تَأْبَوْا نُجَاهِدْكُمْ ونَصْبِرْ ... ولَا يَكُ أَمْرُنَا رَعِشاً ضَعِيفَا
نُجَـالِدُ مَا بَقِينَـا أَوْ تُنِيبُوا ... إِلَى الإسلامِ إِذْعَـــاناً مُضِيفَا(٢)
نُجَـــاهِدُ لا نُبَـالِي مَنْ لَقِينَا ... أَأَهْلَكْنَا التِّـــلَادَ أَم الطَّرِيفَـــا
لِأَمْرِ اللَّـــهِ والإِسْـــلَامِ حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَـدِلاً حَنِيفَـــا(٣)

فقد أبان كعب - ﷺ - في هذه الأبيات عن السَّبب في المضيِّ إلى الجهاد وتحقيق الانتصارات وهو الدَّعوة إلى الإسلام والدُّخول فيه، وإخراج النَّاس من دياجير الشِّرك والضَّلال إلى أنوار الهداية والإيمان، لذا كانت هذه الدَّعوة هي السِّمة البارزة في شعر الغزوات، حيث أبان الشُّعراء في كثير من قصائدهم عن حرصهم على دخول النَّاس في هذه الدَّعوة المباركة، والاستنارة بنور الإسلام، كي يتفيَّؤا ظلاله، وينعموا بسماحته وعدله.

القيم الفنيّة في شعر الغزوات

أوَّلاً : أثر القرآن الكريم في أسلوب الشِّعر

من الجوانب البارزة في شعر الغزوات ما اتَّسم به ذلك الشِّعر من الميل إلى الألفاظ والمعاني القرآنيَّة، وذلك من خلال الاقتباس من الذِّكر الحكيم، فقد تأثَّر الشُّعراء من الصَّحابة – رضوان الله تعالى عليهم – بالقرآن الكريم وببديع أسلوبه وجمال معانيه، فكان أسلوبه المعجز محلَّ اهتمامهم وإجلالهم، ولذا فقد عمدوا إلى الاستنارة بنوره، والإفادة من معانيه السَّامية في أشعارهم، وهو ما ظهر جليّاً في اقتباسات حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من الصَّحابة – رضوان الله تعالى عليهم – وهو ما سيتَّضح من خلال الوقوف على تلك الأشعار.

(١) الرِّيفُ : الموضع المخصب على الماء . يريد نتَّخذكم أعواناً على الحرب ، ونستمدُّ من ريفكم العيش .
(٢) نُجَالِدُ: نحارب بالسُّيوف . ومضيفاً : ملجئاً .
(٣) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٣٥ – ٢٣٧ .

الاقتباس من القرآن الكريم :

توقَّف شعراء الغزوات عند بعض الآيات القرآنيَّة، وتمثَّلوا معانيها، وأدخلوها في أشعارهم التي تتحدَّث عن نصرة الإسلام، والدِّفاع عن العقيدة الإسلاميَّة، والتَّصدِّي للمشركين الذين ما فتئوا ينالون من المسلمين، ويتعرَّضون لهم بالهجاء. وكان من أولئك المتأثِّرين بالقرآن الكريم حسَّان بن ثابت الأنصاريِّ شاعر الرَّسول - ﷺ - إذ جاء شعر الغزوات عنده غنيّاً بالمعاني القرآنيَّة، ولا غرابة في ذلك لأنَّه كان يدافع عن الإسلام بلسانه وسنانه، ومن ذلك ما يظهر في قوله :

وقُلْتُمُ لَنْ نُرَى، واللهُ يُبْصِرُكُمْ وفِيكُمُ مُحْكَمُ الآيَاتِ والقِيلِ
محمَّدٌ والعَزِيزُ اللهُ يُخْبِرُهُ بِمَا تُكِنُّ سَرِيرَاتُ الأَقَاوِيلِ(١)

فالبيت الأوَّل مقتبس من قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ....﴾(٢). والبيت الثَّاني مقتبس من الآية الكريمة : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٣).

ولقد رأى عبد الله بن رواحة - ﷺ - في تحدِّيه للمشركين والرَّدِّ عليهم أنَّ الله هو الذي أخرج النَّاس من الظلمات إلى النُّور، حين أنزل آياته المحكمات على رسوله - ﷺ - يقول :

شَهِدْتُ بأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وأنَّ النَّارَ مَثْوَى الكَافِرِينَا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا
وتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ كِرَامٌ مَلَائِكَةُ الإِلَهِ مُقَرَّبِينَا(٤)

فالبيت الأوَّل فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُمْ﴾ (٥). والبيت الثَّاني يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٦). والبيت الثَّالث مقتبس من قوله – عزَّ وجلَّ -:

(١) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٣٠٢ .
(٢) **سورة الأنعام**، الآية ١٠٣ .
(٣) **سورة القصص**، الآية ٦٩ .
(٤) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٦٥ .
(٥) **سورة محمَّد**، الآية ١٢١ .
(٦) **سورة هود**، الآية ٧ .

-: ﴿وَالْـمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(١).

ويشير كعب بن مالك - ﷺ - إلى عظمة الشَّهادة في سبيل الله، وذلك عندما وصف استبسال جيش المسلمين في يوم خيبر، حيث أشار إلى ذلك بقوله :

ونَحْنُ وَرَدْنَا خَيْبراً وفُرُوضَـــهُ ... بكُلِّ فَتًى عَارِي الأَشَاجِعِ مِذْوَدِ(٢)

يَرَى القَتْلَ مَدْحاً إنْ أَصَابَ شَهَـــادَةً ... مِنَ اللهِ يَرْجُوها وفَوْزاً بِأَحْمَدِ(٣)

فقد أخذ المعنى في البيت الثَّاني من قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٤).

وهذا جعفر بن أبي طالب - ﷺ - الفارس الذي اقتحم معركة مؤتة ضدَّ الرُّوم، وقد تمثَّلت في ذهنه الجنَّة ونعيمها، حيث يقول :

يا حَبَّـــذَا الجنَّةُ واقْتِرَابُها ... طَيِّبَـــةً وبَـــارِداً شَرَابُهَـــا(٥)

فهذا البيت فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ (٦).

وكان عبد الله بن رواحة - ﷺ - الذي وقف الموقف نفسه في معركة مؤتة، قد خاطب نفسه راجياً منها أن تطلب الشَّهادة، وترجو ما عند الله - عزَّ وجلَّ - حيث يقول :

أَقْسَمْـــتُ يَـــا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهْ ... طَائِعَـــةً أَوْ لَا لَتُكْرَهِنَّـــهْ

قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّـــةْ ... جَعْفَرُ مَا أَطْيَبَ رِيحَ الجَنَّـــةْ!(٧)

فقد أخذ المعنى في الشَّطر الثَّاني من البيت الثَّاني من قول الحقِّ -تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْـمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (٨).

---

(١) **سورة الحاقَّة**، الآية ١٧ .

(٢) الفروض : المواضع التي يشرب منها من الأنهار . ومذود : شديد البأس في القتال .

(٣) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ١٩٦ .

(٤) **سورة آل عمران**، الآية ١٦٩ .

(٥) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٣٧٨/٢ .

(٦) **سورة ص** ، الآية ٥١ .

(٧) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٥٣ .

(٨) **سورة الواقعة**، الآية ٨٨ - ٨٩ .

وقد أثَّرت فكرة الجهاد والنُّهوض إليه في وجدان النَّابغة الجعدي[1]، الذي واجه من زوجته محاولةً لإثنائه عن الذَّهاب إلى الجهاد، فقال يصف حالته، ويخاطب زوجته، فيقول :

بَاتَتْ تُذكِّـرُني باللّـهِ قاعِـدةً والدَّمْعُ يَنْهَلُّ مِنْ شَأْنَيْهِمَا سَبَـلَا
يا بِنْتَ عَمِّي كِتَابُ اللهِ أَخْرَجَنـي كَرْهاً، وهَلْ أَمْنَعَنَّ اللهَ مَا بَـذَلَا
فإنْ رَجَعْتُ فَـرَبُّ النَّاسِ أَرْجَعَنـي وإنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَـدَلَا
مَا كُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعْـذُرني أَوْ ضَارِعاً مِنْ ضَنىً لم يَسْتَطِعْ حِـولَا[2]

فالبيت الأخير فيه إشارة إلى قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾[3].

ويشير كعب بن مالك - ﷺ - إلى مصير الكافرين، وما ينتظرهم من عذاب يوم عظيم، حيث يقول :

فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ في مُسْتَقَرِّهَا وكلُّ كَفُورٍ في جَهَنَّمَ صَائِرُ
تَلَظَّى عَلَيْهِمْ وَهْيَ قَدْ شَبَّ حَمْيُها بِزُبْرِ الحَدِيدِ والحِجَارَةِ سَاجِرُ[4]

فقد اقتبس معناه في البيت الأوَّل من قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [5].

ويشير عبد الله بن رواحة - ﷺ - إلى جهاد المسلمين، فيقول :

نُجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عِرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ، وفِينَا تَنْزِلُ السُّوَرُ[6]

فلفظة ((سورة)) في الشَّطر الثَّاني مأخوذة من قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[7].

ويصف كعب بن مالك - ﷺ - خيول المسلمين التي أُعدَّت لحرب المشركين في موقعة الخندق، وما

---

(١) هو قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي العامري ، أبو ليلى ، شاعر مخضرم ، عُمِّر طويلاً في الجاهلية ، وأدرك الإسلام فوفد على النَّبيِّ - ﷺ - وأسلم ، وأدرك صفِّين ثم سكن الكوفة ، وانتقل إلى أصبهان وتوفِّي بها. (انظر: الذهبي، شمس الدين (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **سير أعلام النُّبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ، ٣/٧٧) .

(٢) النَّابغة الجعدي (٥٠هـ/٦٧٠م)، **الديوان**، تحقيق : عبد العزيز رباح ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، د.ت، ص ١٩٤ .

(٣) **سورة الفتح**، الآية ١٧ .

(٤) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٠١ .

(٥) **سورة البقرة**، الآية : ٢٤ .

(٦) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ٨٣ .

(٧) **سورة البقرة**، الآية ٢٢ .

اتَّصفت به من الصِّفات، فيقول :

وَنُعِـــدُّ لِلْأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّـــــصٍ وَرْدٍ، ومَحْجُولَ القَوَائِمِ أَبْلَقِ(١)

فهذا المعنى فيه إشارة إلى قول الحقِّ - تبارك وتعالى - : ﴿وَأَعِدُّوا لَـــهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (٢).

وعلى هذا النَّحو فقد ظهر أثر القرآن الكريم في أساليب الشُّعراء، الذين تحدَّثوا عن الغزوات، ونافحوا عن عقيدتهم، وتصدَّوا للمشركين في كثير من المواقع، وقد أعطى ذلك التَّأثُّر شعرهم قوَّةً في التَّعبير، وأسلوباً سهلاً أزاح عن طريقهم خشونة الألفاظ الجاهليَّة التي كانت سمةً بارزةً قبل ظهور الإسلام.

ثانياً : اللُّغة الشِّعريَّة :

اللُّغة عنصر رئيس من عناصر الإبداع الشِّعري، وهي الوسيلة التي تفصح عن مدلول الشَّاعر ومراده، وذلك من خلال ما يبثُّه في شعره من مشاعر وشجون.

والشِّعر الجيِّد هو الذي يمتاز بتجانس الألفاظ والمعاني، فترقُّ تلك الألفاظ في المواضع التي تتطلَّب الرِّقَّة، وتجزل وتشتدُّ في المواضع التي تتطلَّب الشِّدَّة والفخامة، وهو ما دعا إليه القاضي الجرجاني في قوله : " أرى لك أن تقسِّم الألفاظ على رتب المعاني " (٣).

والمتأمِّل في ألفاظ شعر الغزوات يجد أنَّها اتَّسمت في جانب كبير منها بالجزالة، وقد حدَّد النُّقَّاد ملامح اللفظ الجزل في الكلام بأنَّه هو الذي "يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السَّمع "(٤)، فلا تشوبه وحشيَّة أو وعورة، كما بيَّنوا المواضع التي يستعمل فيها اللفظ الجزل، ومنها ما "يكون في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التَّهديد والتَّخويف، وأشباه ذلك" (٥).

ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك - ﷺ - في موقعة الخندق، التي يقول فيها :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْـــرَقِ

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيوفُهـــــا بينَ المِذَادِ وبينَ جِزْعِ الخَنْـــدَقِ

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا قُدُماً، ونُلْحِقُها إِذَا لَمْ تَلْحَـــقِ

---

(١) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٤٤ .

(٢) **سورة الأنفال**، الآية ٦٠ .

(٣) القاضي الجرجاني، علي بن عبدالعزيز (٣٦٦هـ/٩٧٦م)، **الوساطة بين المتنبِّي وخصومه**، تحقيق: محمد أبو الفضل وزميليه، مطبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، د.ت، ص ٢٤ .

(٤) ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر**، تحقيق: أحمد الجوفي وزميليه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ١٨٥/١ .

(٥) **المصدر السَّابق**، ١٨٥/١ .

فَتَرَى الجَمَاجِمَ ضَاحِياً هَامَاتُهـــا بَلْهَ الأَكُفِّ كَأَنَّها لم تُخْلَـــقِ
نَلْقَى العَدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلْمُومَـــــةٍ تنفي الجُمُوعَ كَقَصْدِ رأْسِ المَشْرِقِ
ونُعِدُّ للأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّـــصٍ وَرْدٍ ومَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَـــقِ
تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَـــأَنَّ كُمَاتَهُمْ عِنْدَ الهِيَاجِ أُسُـــودُ طَلٍّ مُلْثِقِ(١)

حيث يصف كعب - ﷺ - حماسة جيش المسلمين، واستعدادهم للقاء المتحزِّبين من المشركين في يوم الخندق، وقدرتهم على إلحاق الهزيمة بهم إذا قدموا لحرب المسلمين، مبيِّناً ما امتاز به ذلك الجيش من التَّعوُّد على خوض المعارك ومنازلة الأعداء، وإعمال السُّيوف فيهم، حيث يظهر دور الفرسان المسلمين على خيولهم المضمَّرة المعدَّة للقتال فكأنَّهم أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عنه بكلِّ بسالة، وقد اعتمد الشَّاعر في وصف تلك المشاهد الحماسيَّة على الألفاظ الجزلة، ومن تلك الكلمات (ضرب، يمعمع، المحرق، مأسدةً، سيوفها، الجماجم، هاماتها، العدو، بفخمة، ملمومة، مقلَّص، ورد، محجول، أبلق، بفرسان، كماتهم، الهياج، أسود، ملثق) فهي ألفاظ تتَّسم بالقوَّة، وشدَّة الجرس، وتوحي بجوِّ المعركة، وما يكتنفه من اصطدام الجيوش، وصليل السُّيوف، وشدَّة إعمالها في الأعداء.

ويستخدم العبَّاس بن مرداس - ﷺ - الألفاظ الجزلة في وصف فتح مكَّة، وما تحقَّق فيه للمسلمين من عزٍّ ومنعة، يقول :

مِنَّا بِمَكَّةَ يومَ فَتْحِ محمَّـــــدٍ أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ البِطَاحُ مُسَوَّمُ
في مَنْزِلٍ ثَبَتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُـــــمْ ضَنْكٍ كَأَنَّ الهَامَ فيهِ الحَنْتَـــمُ
جَرَّتْ سَنَابِكَها بنجدٍ قَبْلَهـــا حتَّى اسْتَقَادَ لها الحِجَـــازُ الأَدْهَمُ(٢)

فالشَّاعر هنا يصوِّر ما دار يوم فتح مكَّة من حشد الجيوش المتأهِّبة للفتح، ومنهم قومه من بني سُليم الذين شاركوا بفرسانهم في ذلك الفتح، وأظهروا ثباتهم ورباطة جأشهم في تلك المناسبة العظيمة، وقد ألبس الشَّاعر تلك المعاني ألفاظاً تناسبها في القوَّة والشِّدَّة، وتوحي بصور البسالة والإقدام، حيث اعتمد في ذلك على ألفاظ اتَّسمت بالمتانة والجزالة، ومن تلك الألفاظ: (تسيل، البطاح، مسوَّم، ضنك، الهام، الحنتم، جرَّت، سنابكها، استقاد، الأدهم) فهذه الألفاظ ترسم صورةً تموج بالحركة والقوَّة، لتجسِّد ما شهده ذلك الفتح من قوَّة وشجاعة من قبل جيش المسلمين.

(١) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٤٥ – ٢٤٦ .
(٢) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٤٢٦ .

ومن الجوانب البارزة في شعر الجهاد شيوع الألفاظ الإسلاميَّة التي جاءت مع الدِّين الجديد، حيث تأثَّر بها الشُّعراء، وأدخلوها في معجمهم الشِّعري، فجاءت قصائدهم الشِّعريَّة تحفل بتلك الألفاظ، التي هي مظهر من مظاهر الشِّعر في عصر صدر الإسلام(١). ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قول حسَّان بن ثابت - ﷺ - في موقعة الخندق :

وكَفَى الإلَـــــهُ المؤمنين قِتَالَهُمْ ... وأَثَابَهُمْ في الأَجْرِ خَيْرَ ثَـــــوَابِ
مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهُـــمُ ... تَنْزِيلُ نَصٍّ مَلِيكِنَـــا الوَهَّـــابِ
وأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وصِحَابِـــهِ ... وأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَـــــابِ
مُسْتَشْعِرٍ لِلْكُفْـــــرِ دُونَ ثِيَابِهِ ... والكُفْرُ ليسَ بِطَاهِرِ الأَثْـــوَابِ(٢)

فالشَّاعر يشير إلى ما آلت إليه موقعة الخندق من تفرُّق جموع المشركين، وتشتُّت حشودهم، ورجوعهم خائبين، وقد كفى الله المؤمنين القتال، وأثابهم الأجر على ما بذلوا في مواجهة الكفَّار، حيث كانت العزَّة للمسلمين، والذِّلَّة والخزي للكافرين.. وقد جاء النَّصُّ يزخر بالألفاظ الإسلاميَّة، ومن ذلك (الإله، المؤمنين، أثابهم، الأجر، ثواب، تنزيل، نص، مليكنا، الوهَّاب، صحابه، مكذِّب، مرتاب، الكفر، طاهر) فهذه الألفاظ أبانت عن المعنى العام الذي قصد إليه الشَّاعر، وأكسبته دلالةً جديدةً، تدلُّ على تأثُّر حسَّان - ﷺ - بالمعاني الإسلاميَّة، والقيم الدِّينيَّة الَّتي أتى بها الدِّين الحنيف.

ويشير كعب بن مالك - ﷺ - إلى أنَّ الدَّعوة إلى الإسلام، والحرص على دخول النَّاس فيه هو السَّبب في مسيرة الجهاد، وانطلاق المسلمين لإعلاء راية الحقِّ، حتَّى ينتشر الإسلام في شتَّى الأصقاع، يقول :

نُجَـــالِدُ مَا بَقِينَـــا أَوْ تُنِيبُوا ... إِلَى الإسلامِ إِذْعَـــاناً مُضِيفَـــا
نُجَـــاهِدُ لا نُبَـــالِي مَنْ لَقِينَا ... أَأَهْلَكْنَا التِّـــلَادَ أَم الطَّرِيفَـــا
لِأَمْرِ اللَّـــهِ والإِسْـــلَامِ حَتَّى ... يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَـــدِلاً حَنِيفَـــا(٣)

فقد اعتمد الشَّاعر في أبياته على القاموس الإسلامي، واختار منه ما يعبِّر عن مضمونه بما يناسبه من الألفاظ الإسلاميَّة، ومنها (الإسلام، نجاهد، أمر الله، الدِّين، معتدلاً، حنيفاً).

---

(١) انظر: الحامد، عبد الله، **الشِّعر الإسلامي في صدر الإسلام**، ط٢، ١٤٠١هـ، ص ١٠٥ ، القيسي، أيهم، **شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام حتى سنة ٢٣هـ**، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ص ٣١٧، الهادي، صلاح الدين، **الأدب في عصر النبوة والراشدين**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤٠٩هـ، ص ٢٥٩ .

(٢) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ١٢٠ .

(٣) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

ومن سمات التَّراكيب في شعر الجهاد غلبة البساطة والعفويَّة على هذا الشِّعر، فهو شعر مطبوع، يبتعد عن التَّعقيد والالتواء، وذلك يعود إلى أثر الثَّقافة الإسلاميَّة النَّابغة من تأثير القرآن الكريم والحديث النَّبوي، وصفاء اللُّغة التي ورد بها، فهي لغة منتقاة، تبتعد عن الخشونة، كلُّ ذلك أدَّى إلى وضوح التَّراكيب في شعر الجهاد وحسن تأليفها، وبعدها عن التَّنافر والتَّعقيد، ومن أمثلة ذلك ما يظهر في قصيدة كعب بن مالك - ﷺ - التي نظمها يوم الخندق، يقول :

وسَائِلَةٍ تُسائلُ ما لَقِينَا ... ولو شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لا نَرَى لِلَّهِ عِدْلاً[1] ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا
وكانَ لنا النَّبيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَا
تُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وعَقُّوا ... وكانوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَا[2]
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللَّهَ حتَّى ... نكونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا[3]

حيث يصف كعب - ﷺ - ما أصاب المسلمين في موقعة الخندق التي تحزَّب فيها المشركون واليهود والقبائل الموالية لهم، وساروا لحرب المسلمين، الذين واجهوا أولئك المتحزِّبين بالصَّبر، واليقين، والتَّوكل على الله – عزَّ وجلَّ – فكان النَّصر حليفهم، وكانت الهزيمة والذِّلَّة من نصيب تلك الأحزاب التي تحالفت وتآمرت من أجل العدوان على المسلمين.. وقد عبَّر الشَّاعر عن تلك المعاني بألفاظ سهلة واضحة تتلاءم مع طبيعة الموضوع، وصاغها في عبارات متآلفة متجانسة، ومن تلك العبارات : (ولو شهدت رأتنا صابرينا، على ما نابنا متوكِّلينا، وكان لنا النَّبي وزير صدق، نقاتل معشراً ظلموا وعقُّوا، نعاجلهم إذا نهضوا إلينا) حيث يظهر ترابط تلك العبارات وتماسكها، وقدرتها على التَّعبير عمَّا يرمي إليه الشَّاعر بوضوح. وهذه السِّمة تلحظ بوضوح في أغلب الشِّعر الذي صاغه الشُّعراء حول الغزوات [4]، حيث تأنَّقوا في صوغ عباراتهم، والعناية بأساليبهم، وبخاصَّة أنَّ هذا الشِّعر يردُّ على المشركين، وينقض

(١) العِدْلُ : المِثْلُ .
(٢) المُرْصِدُ : المُعِدُّ للأمر عُدَّته .
(٣) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .
(٤) راجع مثلاً : حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٧١ – ٧٥ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٣٨، ١٤٧ ، كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٣٤ – ٢٣٧ ، ٢٥٥ – ٢٥٨ .

قصـــــائدهم التي تعرَّضوا فيها للمسلمين[١].

ثالثاً : الصُّورة الفنِّيَّة :

تعدُّ الصُّورة من أهمِّ العناصر الفاعلة في القصيدة الشِّعريَّة، لكونها من الوسائل الفنِّيَّة التي يعتمد عليها الشُّعراء في التَّعبير عن أفكارهم، لتقريب المعاني وزيادة توضيحها للتَّأثير في السَّامع. والصُّورة بناءً على ذلك " ليست زينةً شكليَّةً، أو حليةً مصطنعةً، وإنَّما أداة أساسيَّة لتوصيل الخبرة والتَّعبير عن الرُّؤية" [٢].

وتظهر الصُّورة بشكل أوضح من خلال "الشَّكل الفنِّي الذي تتَّخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشَّاعر في سياق خاص ليعبِّر عن جانب من جوانب التَّجربة الشِّعريَّة"[٣] معتمداً في ذلك على وسائل التَّعبير المختلفة في رسم مشاهداته ونظرته الخاصَّة للأشياء.

وتأتي الفنون البيانيَّة في مقدِّمة الصُّور التي استعان بها الشُّعراء في شعر الغزوات، وهي صور عمادها التَّشبيهات، والاستعارات، حيث لجأ إليها الشُّعراء في قصائدهم لما تمثِّله من قيمةٍ فنِّيَّة عالية.

ويعدُّ التَّشبيه من أكثر الفنون البيانيَّة جرياناً في الشِّعر، فهو من أقدم صور البيان وأقربها إلى الفهم والأذهان، وبه يزداد المعنى وضوحاً ويكتسب تأكيداً [٤].

ومن الصُّور التَّشبيهيَّة ما يظهر في قول كعب بن مالك - ﷺ - في موقعة بدر، حيث صور مسيرة جيش المسلمين لملاقاة المشركين، وكأنَّهم أسود تزأر تنتظر فريستها، يقول :

فَسَارُوا وسِرْنَا فَالْتَقَيْنَـــا كأنَّنـــــــا ... أُسُودُ لِقَـــاءٍ لا يُرَجَّى كَلِيمُهـــا[٥]

كما صوَّر حسَّان بن ثابت - ﷺ - استعداد المسلمين للقتال، فقال :

فِتْيَانُ صِدْقٍ كاللُّيوثِ مَسَاعِرٌ ... مَنْ يَلْقَهُمْ يَوْمَ الهِيَاجِ[٦] يُعَرِّدِ[٧]

حيث يصف فرسان المسلمين الذين يقفون في مقدِّمة الصفوف للدِّفاع عن عقيدتهم، والتَّضحية من أجلها، ولذا أطلق عليهم فتيان صدق، وشبههم بالأسود الضَّارية التي تدافع عن عرينها بكل حماسةٍ وعزيمة،

---

(١) راجع مثلا: ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٢٥٤ – ٢٥٥ ، ٢٥٧ – ٢٥٨ ، الجبوري، **شعر عبدالله بن الزِّبعرى**، ص ٢٩ – ٣٠ ، ٣٧ – ٣٩ ، ٤٠ – ٤٣ .

(٢) وادي، طه، **جماليَّات القصيدة المعاصرة**، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م، ص ٢١٢ .

(٣) القط، عبد القادر، **الاتِّجاه الوجداني في الشِّعر العربي المعاصر**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص ٣٩١ .

(٤) انظر : القيرواني، ابن رشيق (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، **العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ١/٢٨٧.

(٥) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٦٦ .

(٦) يوم الهياج: أي يوم الوقائع والمعارك الشَّديدة ، يعرِّد : يفرُّ .

(٧) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٩٤ .

وهـــم مع ذلك يسعرون نار الحرب، التي لا يقوى الأعداء على خوضها، بل يفرُّون منها لجبنهم وخورهم.

كما شبّه شعراء الغزوات أعداءهم من المشركين بالنَّعام، الذي يضرب به المثل في الجبن، وممَّا جاء من أمثال العرب قولهم : ((أندُّ من نعامة))[1] أي أنْفَر. حيث شبَّه كعب بن مالك - ﷺ - فرار المشركين يوم بدر بالنَّعام، فقال :

فَأَتَاكَ فَلُّ المشركين كَأَنَّهُمْ والخَيْـــلُ تَتْفُنُهُم نَعَـــامٌ شُرَّدُ[2]

أمَّا حسَّان - ﷺ - فقد رأى تصويراً آخر لفرار المشركين في غزوة بدر، وذلك حين شبَّههم بالإبل التي يسير بعضها في إثر بعض، مبيِّناً هروبهم من أرض المعركة، ورجوعهم على أعقابهم بعد أن حمي الوطيس، وأحاط بهم المسلمون من كلِّ جانب، حيث يقول في ردِّه على قصيدة ابن الزِّبعرى :

إِذْ تُولُّونَ عَلَى أَعْقَابِكُـــــــمْ هَرَباً في الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلْ[3]

أمَّـــا فرســـان المسلمـــين الذين يواجهون الأعداء بكلِّ بســـالة فقد شبَّههـــم حسَّان - ﷺ - بالصُّقور، في قوَّة بأسهم، ونفاذ بصرهم، وتمكُّنهم من خصومهم، يقول:

لَهُ خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَـــادَى[4] بِفُرْسَانٍ عَلَيها كَالصُّقُورِ[5]

ويشير حسَّان بن ثابت - ﷺ - إلى مكانة خُبَيب بن عدي[6] - ﷺ - وجهاده من أجل نصرة الإسلام، فيقول :

صَقْراً تَوَسَّطَ في الأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ حُلْوَ السَّجِيَّةِ مَحْضاً غَيْرَ مُؤْتَشِبِ[7]

وفي معركة بـــدر لم يجد كعب بن مالك - ﷺ - بدّاً من ذكـــر مسيرة ذلك الجيش المسلم، يقدمه الرَّسول الكريـــم - ﷺ - حيث يحثُّهم على الجهـــاد، ويقوِّي عزائمهم، وهم يصغون إليـــه، ويطيعونه في كلِّ ما يقول، وقد لجأ كعب - ﷺ - إلى الصُّورة التَّشبيهيَّـــة في هذا المقام، وذلك عندما شبَّه النَّبيَّ - ﷺ - بالبدر، الَّذي يضيء للآخرين فينير لهم طريقهم، ويدلّهم إلى طريق الرَّشاد والفلاح، يقول :

---

(١) الميداني، أبو الفضل (٥١٨هـ/١١٢٤م)، **مجمع الأمثال**،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م، ٤١٣/٣.

(٢) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ١٩١ .

(٣) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ١٨١ .

(٤) الخيلُ المجنَّبَةُ : المقودةُ . وتعادى : تسرع .

(٥) حسَّان بن ثابت، **الديوان** ، ص ٢٤٥ .

(٦) هو خُبَيْب بن عديٍّ بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري ، شهد بدراً ، وقَتَل الحارث بن عامر بن نوفل ، واستشهد في عهد النَّبيِّ ﷺ . انظر : العسقلاني، ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ١٨٥/٣.

(٧) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٢٢٥ .

نَمْضِي ويَذْمُرنا[١] في غَيْرِ مَعْصِيَةٍ كأنَّه البَدْرُ لم يُطْبَعْ عَلَى الكَـــذِبِ[٢]

وفي صورة تشبيهيَّة أخرى يشبِّهه - ﷺ - بالشِّهاب، وهو يتوسَّط المسلمين، يقول كعب :

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثمَّ يَتْبَعُه نورٌ مضيءٌ له فَضْلٌ على الشُّهُبِ[٣]

كما استعان الشُّعراء بالاستعارات الجميلة لإبراز معانيهم في حلَّة قشيبة، وإيرادها في شكل تشتاق إليه النُّفس، وتأنس به. ومن تلك الصُّور ما عبَّر عنه حسَّان بن ثابت - ﷺ - في يوم بدر، وذلك في وصف هزيمة حكيم بن حزام بن خويلد[٤] في ذلك اليوم، حيث قال :

نَجَّى حَكِيماً يَوْمَ بَدْرٍ رَكْضُـــهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الأَعْوَجِ

لَـــمَّا رَأَى بَدْراً تَسِيلُ جِلَاهَهَا[٥] بِكَتَائِبٍ مِلْأَوْسِ أَوْ مِلْخَزْرَجِ[٦]

فقد جعل حسَّان - ﷺ - في البيت الثَّاني جِلَاه بدرٍ تسيل رجالاً من كثرة كتائب الأوس والخزرج على سبيل الاستعارة، وذلك بما تحمله من عمق في تصوير تلك الكتائب، التي قدمت لنصرة الإسلام ودحر الشِّرك.

وفي تصوير المعارك تظهر جليّاً براعة الشُّعراء في التقاط صورهم التي رسموا من خلالها مشاهد حيَّة لما دار في أرض المعركة من مواقف وأحداث، ومن ذلك ما عبَّر عنه كعب بن مالك - ﷺ - في موقعة بدر، عندما وصف قتلى المشركين الذين سقطوا في أرض المعركة، فقال :

وعُتْبَةُ وابْنُـــه خَـــرَّا جميـــعـــاً وشَيْبَةُ عَضَّهُ السَّيْـــفُ الصَّقِيـــلُ

وهَام بني ربيعـــــةَ سَائلُـــوهـــا ففي أَسْيَافِنـــــــا منها فُلُـــولُ[٧]

حيث أشار كعب - ﷺ - إلى مقتل سادة قريش، ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، اللذان قتلا في بدر، فقد لقيا جزاء عداوتهما ومحاربتهما للمسلمين، وفي التَّعبير عن مصرع شيبة تصوير بديع، وذلك حين قال : ((وشيبة عضَّهُ السَّيف الصَّقيل)) فقد شبَّه السَّيف بحيَّة تعضُّ، وتنهش، وتلحق الضَّرر بمن تريد، حيث أوحى هذا التَّعبير بالأثر الذي أحدثه السَّيف، وما كان له من وقع مؤلم في أجساد المشركين. وفي قوله : ((وهَام بني ربيعةَ سَائلُـــوها)) إحالة للسُّؤال من العاقل إلى ما لا يعقل، إذ الخطاب يكون في حقيقته إلى أولئك المشركين، وليس إلى هاماتهم التي تطايرت في يوم بدر، وهنا يكون التَّعبير أبلغ

---

(١) يذمرنا : يحضُّنا ويدفعنا .

(٢) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السَّابق ص ١٧٤ .

(٤) تقدَّمت ترجمته ص (١٠) .

(٥) الجِلَاه : جمع جلهة ، وجلهتا الوادي : جانباه . وملأوسٍ أو ملخزرج: أي من الأوس ومن الخزرج على سبيل التَّسهيل .

(٦) حسَّان بن ثابت، **الديوان**، ص ٢٩٩ .

(٧) كعب بن مالك، **الديوان**، ص ٢٥٣ .

وأقوى تأثيراً من جهة الاستدلال على ما حلَّ بالمشركين، وما أصابهم في تلك الموقعة الحاسمة.

ويصف العبَّاس بن مرداس السُّلمي ما كان من مشاركة بني سُليم في فتح مكَّة بألف فارس جاءوا لنصرة النَّبيِّ - ﷺ - وتحقيق الفتح المنتظر، يقول :

مِنَّا بمكَّة يومَ فَتْحِ محمَّـــــــــدٍ أَلْفٌ تَسيلُ بِهِ البِطَاحُ مُسَوَّمُ(١)

لقد كان العدد الذي شـــارك المسلمين من بني سُليـــم كثيراً في نظر الشَّـــاعر، فهم ((معلَّمون)) ومتدرِّبون على الحرب وخوض غمارها من جهة، وقد سالت بهم تلك الأرض السَّهلة المتَّسعة لكثرتهم ووفرة أعدادهم من جهة أُخرى، وهنا يبرز دور التَّصوير الذي لجأ إليه العبَّاس بن مرداس في قوله: ((ألف تسيل به البطاح)) إذ لا تسيل الأرض ماءً، بل تسيل رجالاً من بني سُليم ملأوا بكتائبهم تلك البطاح، وهو ما يُبرز أهمِّيَّة تلك الحشود الَّتي توافرت لنصرة المسلمين في فتح مكَّة.

وفي موقعة مؤتة، وأمام جيوش الرُّوم الجرَّارة التي واجهت المسلمين في أرض المعركة، لم يجد عبد الله بن رواحة - ﷺ - بدَّاً من مخاطبة نفسه، وحثِّها على الصَّبر والعزيمة، والتَّضحية من أجل النَّصر أو الشَّهادة في سبيل الله، يقول :

يَـــــا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُـــوتِي هذا حِيَاضُ المَوْتِ قـــــد صَلِيـــــتِ
إِنْ تَسْلَمِي اليَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِـــــي أَو تُبْتَلِي فَطَالَمَـــــا عُـــــوفِيـــــتِ(٢)

فقد جعل الشَّاعر من نفسه إنساناً مقابلاً له يجيد لغة الحوار والخطاب، والجدال والإقناع، وذلك ليبثَّ ما في وجدانه من مشاعر، ويعـــالج ما في داخله من إحجام، قاصداً في نهاية المطاف أن تتشجَّع نفسه، وتُقدم على ذلك الأمر الذي جاءت من أجله، وهو الجهاد والتَّضحية في سبيل الله.

ويصوِّر العبَّاس بن مرداس - ﷺ - بطولة قومه وشجاعتهم، وهم يتصدُّون للمشركين في موقعة حُنين، فيقول :

إِذْ نَرْكَبُ المَوْتَ مُخْضَرّاً بَطَـــائِنُـــــهُ والخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْها سَاطِعٌ كَدِرُ(٣)

فالشَّاعر هنا وفي سياق تجسيد شجاعة قومه وفروسيَّتهم يلجأ إلى التَّصوير، وذلك حين أحال الأمور المعنويَّة إلى أمور حسيَّة، تشاهد، وتُركب، ويُتعامل معها، وهو ما يظهر فيقوله : ((إذ نركب الموت مخضرّاً بطائنه)) فقد أحال ((الموت)) وهو أمر معنوي إلى محسوس، وجسَّده بشكل ملموس، ليُوحي من خلال

(١) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٤٢٦ .
(٢) عبد الله بن رواحة، **الديوان**، ص ١٥٤ .
(٣) ابن هشام، **السِّيرة النَّبويَّة**، ٢/٤٦٧ .

ذلك بما امتاز به أولئك الفرسان من ثبات، وعزيمة، وإقدام في أرض المعركة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام على أفصح العرب قاطبة سيِّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فقد سارت هذه الدِّراسة في تتبُّع شعراء غزوات النَّبيِّ ﷺ، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدِّفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتَّصدِّي لهم في كلِّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدَّعوة الإسلاميَّة.

وقد اشتملت هذه الدِّراسة على قسمين أساسين، **أحدهما** بعنوان : ((الشِّعر في مواكبة الغزوات))، وفيه عرض البحث لغزوات النَّبيِّ ﷺ، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشِّعر من ردود على شعراء المشركين، حيث كانت غزوة ((بدر)) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشُّعراء، ثم تلتها غزوة ((أحد))، واتَّسم فيها الشِّعر بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفخرون على المسلمين، ولذا فقد جاءت الرُّدود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشِّعر، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة ((الخندق)) وقف الشِّعر يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنويَّة في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنَّهم باءوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة ((مؤتة)) وقف الشِّعر يستنهض الهمم، ويقوِّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من النَّصر أو الشَّهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء ((فتح مكة)) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء، حيث مجَّد الشُّعراء ذلك الفتح وأبانوا عن عظمته، وأهمِّيَّته للمسلمين.

أمَّا **القسم الثَّاني** فكان بعنوان : ((القيم الفنِّيَّة في شعر الغزوات)) وفيه تناولت الدِّراسة ما اتَّسم به ذلك الشِّعر من قيم فنِّيَّة في جانب اللُّغة الشِّعريَّة، والصُّورة الفنِّيَّة، وبيان أثر القرآن الكريم في شعر الغزوات.

هذا وأسأل الله تعالى التَّوفيق والسَّداد، وأستمدُّ منه العون والتَّأييد.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.